

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
Faculté des sciences humaines et des sciences islamiques

قسم أصول الدين

منهج القرآن الكريم في عرض الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب

مذكرة تخرج مكملة لنيل شهادة الماستر في تخصص تفسير وعلوم القرآن .

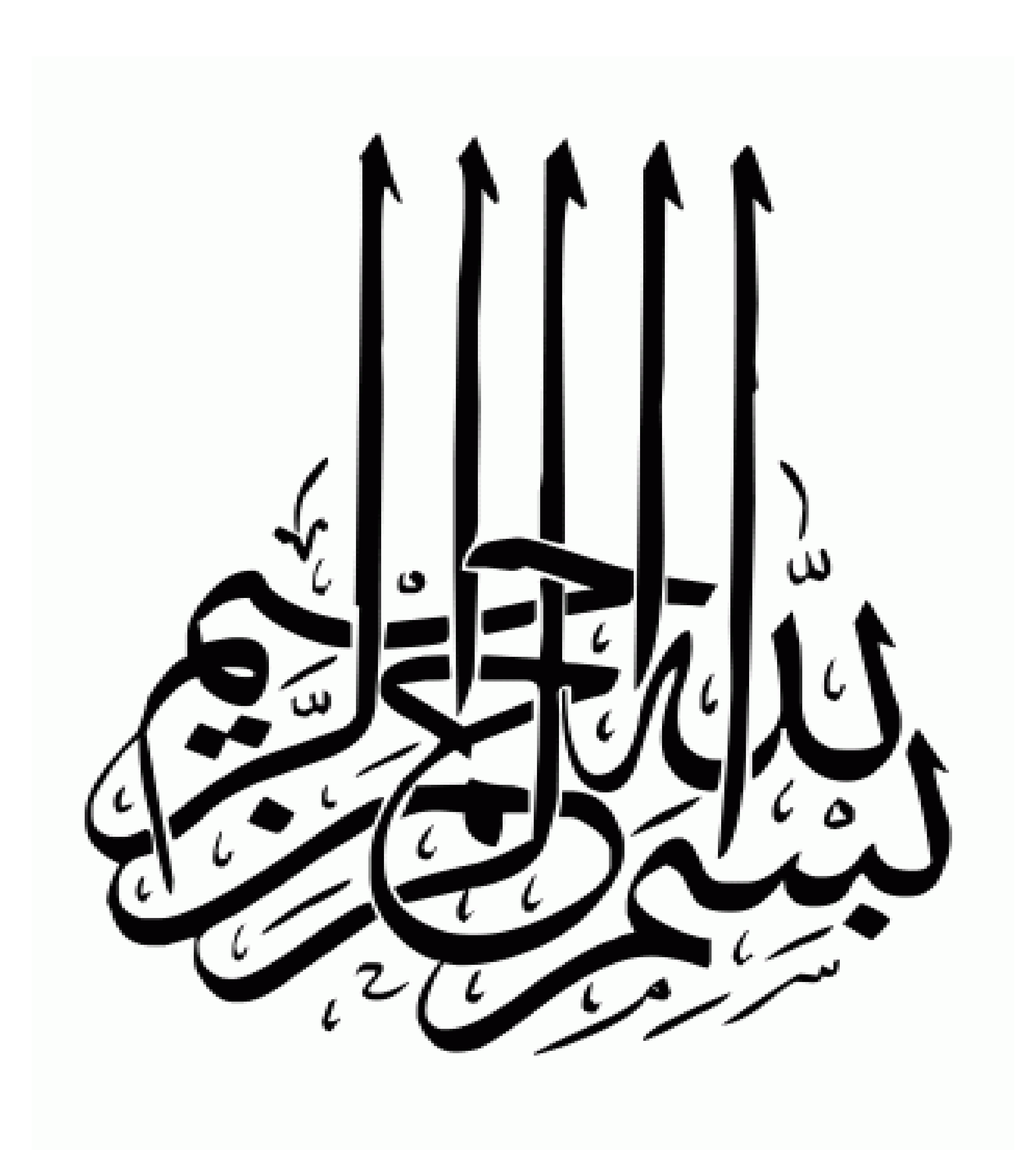
إعداد الطالب : الحسين يختار .

إشراف الدكتور: الأستاذ. مراد بلخير.

أعضاء اللّجنة المناقشة:

الإسم واللقب	الجامعة	الصفة
د. رابح صرموم	جامعة وهران (1) أحمد بن بلة	رئيسًا
د. مراد بلخير	جامعة وهران (1) أحمد بن بلة	مشرفًا
أ.د.نذيراوسالم	جامعة وهران (1) أحمد بن بلة	مناقشًا

السنة الجامعية: (1441-1442ه/2020-2021م)


بسم الله الرحمن الرحیم

شكر وتقدير

أول من أرفع إليه شكري هو الخالق البارئ جل علاه على ما أولى به وأنعم ،وعلى وما وفقني إليه ورزقني به وأكرم، فله الحمد كله وله الشكر كله حتى الرضا وحين الرضا وبعد الرضا.

ثم شكري الخالص إلى السادة المكرمين أعضاء لجنة المناقشة على تكرمهم بقبول هذا العمل .

وشكري الخاص للأستاذ المحترم الدكتور مراد بلخير على صبره ورحابة صدره

دون أن أنس كل من مد إلي يد العون في سبيل إنجاح هذا العمل، وأخص بالذكر السيد مدير متحف المجاهد بمستغانم الأستاذ الفاضل بلال دقيوس ، وجميع الطواقم المكتبية في مختلف المؤسسات التي لم تبخل في تسهيل أعمال البحوث رغم ظروف االجائحة الراهنة .

الإهداء

إلى روح والدي الكريمين رحمهما الله تعالى

إلى كل غيور على كتاب الله تعالى

تلاوة وتدبرا

إلى كل غيور على التراث النبيل

قبس

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا.

الإسراء أية 9

المقدمة

الحمد لله واهب النعم ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،القائل في كتابه وعن كتابه : **"قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا"**الكهف 109

و إن شرف كل علم هو من شرف ما تعلق به من معلوم ، ولما كان المعلوم هنا هو كتاب الله العزيز الحكيم، وما احتواه من قصص و أخبار و مواعظ ، فمن دون شك أن ما تعلق بهذا فاق كل العلوم شرفا ورفعة وقدرا ، وحسبك قول الله تعالى **"وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** " هود 120

وإذا كان النظر في مباحث **ال**كتاب العزيز هو من جنس المنح الإلهية، والمواهب الربانية ، التي فتح الله بها على بعض عباده الصلحاء ، فإنه جل علاه قد قرر وهو أحكم الحاكمين: **"كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا "**الإسراء20

وإن من موضوعات القرآن الكريم الجليلة القدر ،الرفيعة الشأن والمنزلة ، قصص القرآن الكريم وقضاياه التاريخية التي عالجها بمناهج ناسبت قلوب العباد وما ينفعها، وأفعالهم وما يصلحها .

هذه القضايا التاريخية لا تحصى عددا ، بين أخبار مطولة وأخرى توجيهات عابرة تشير إلى عادات كانت متبعة ، أوردها القرآن الكريم في شكل عبارات وجيزة ،على جهة التأنيب و التصويب تارة، أو المن على العباد، من أنه هو الذي مكنهم في ذلك تارة أخرى .

و لا يخفى على أحد أن مثل هذه الأبحاث تكتسي أهمية بالغة، من حيث أنها تسلط الضوء على جوانب مهمة من حياة المجتمع العربي القديم ، والطرق التي إنتهجها القرآن الكريم في عرض حوادثه التاريخية ،بدءا من فترات الجاهلية الأولى إلى عصر البعثة النبوية المنير.

أسباب الاختيار

و ما ينبغي الإشارة إليه في المستهل ، أن ثمة دراسات تناولت موضوع حوادث العرب المعهودة في الجاهلية من زاوية واحدة ، و سارت على نحو قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ...... وعين السخط تبدي المساوئ

أعني بهذا تلك الأقلام التي أطلقت العنان في إلصاق كل تهمة بالعرب ، وقد عميت أبصارها عن كل فضيلة عرفها العرب ، وبالغت في الحط منهم مبالغة تجاوزت حدود اللباقة، وأجحفت غاية الإجحاف في حق أمة اعتبرت الشجاعة والكرم والعفو والحلم والإباء والإجارة ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف، والذود عن شرف الوطن والقبيلة، عنوانا للرجولة ، منذ بزوغ فجر الإنسانية.

لقد ألمني كثيرا وأنا أقرأ لبعض البحوث والمقالات التي تصور حياة الرجل العربي في الجاهلية تترنح بين نهاية حرب وقيام أخرى، ليس بينهما إستراحة يسيرة،وأن ساحتهم خلت إلا من ووأد البنات وإخافة السبيل وإدمان الخمور وأكل أموال الناس بالباطل..

لقد صوروا كل شيء ينذر بالفناء في بيئة العرب القديمة ، حتى كأنك تتجول في غابة تلاشت فيها كل القيم ، و لم يعد بها بقاء إلا للأقوى .

ومعلوم أن مثل هذا الكلام المفترى ، على أمة قدر الله أن تكون خلافة البشرية فيها بعد نوح -عليه السلام **"وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً "** الأعراف 69 – هو فيض من غيض، طفحت به الكثير من الكتابات، وسخرت له أقلام وندوات لا نعلم بواعثها وما تخفي وراءها ، وإن كانت مراميها بادية ....

إن مثل تلك النظرات الضيقة، والأفكار المشبوهة المجانبة للمعيار العلمي الدقيق ، إلى جانب أفكار أخرى – مرتبطة أيضا بالدراسات القرآنية أو التاريخية التي نفخ في رمادها ثلة من المستشرقين ، لتنبعث منها رائحة الشك والقلق، كونها لا تخرج عن دائرة الحملات التي تعكس حقد وتكالب الأمم ، ولقد إنبرى في التصدي لها– ولله الحمد – لفيف من العلماء والأدباء كان الجاحظ أبو عمرو في طليعتهم ، وقد فضح قديما مثالب ومخططات الشعوبيين .

نعم في العروبة غاب كثيرة كلما غاب منها قسور ناب عنه قسور ، هم أسود شرف ومواقف، ويكفي في ذلك قصيدة واحدة على النحو الذي كتب لقيط بن يعمر الإيادى في حماية الوطن من الأعادي .

لقد كان موضوع التحامل والحقد على الأمة العربية والإفتراء عليها ، إلى الدرجة التي عرفنا ، أحد البواعث الأساسية التي دفعت بي إلى (الجرأة) في الإقدام على مثل هذه المواضيع الشيقة والشائكة في أن واحد .

كما كان لزاما علي التوجه بأخلص التشكرات العميقة إلى الأستاذ الفاضل مراد بلخير ، صاحب الفكرة الأساسية، إلى إدارة كلية أصول الدين بجامعة وهران 1ممثلة في مجلسها العلمي الموقر ، الذي أيد الإقتراح ، و كل من كان سببا في هذا البحث.

ولعله من الإنصاف أن أقول: إن تشجيع الطلبة على مثل هذا النوع من البحوث، هو مبادرة تستحق كل الشكر والتقدير والمباركة ، وهو من بشائر الخير التي حلقت شامخة في الأفق العلمي، في مقابل الدعوات الجديدة التي تبجحت زورا تحت ستار التفتح و العصرنة بغرض الإنفلات من كل ما هو ماض وعريق حتى وإن تعلق الأمر بالقرآن الكريم نفسه .

أهداف البحث

وأعتقد بعد هذا ، قد اتضحت معالم البحث ، وبانت غاياته، فهو يرمي في أبعاده إلى المساهمة في إثراء موضوع الكشف عن الجوانب التاريخية التي حفل بها القرآن الكريم ، والمتعلقة أساسا بالبيئة العربية التي نزل فيها، والمنهج الذي إعتمده في عرض الحوادث التاريخية عند العرب، وهو يشير أيضا إلى لون أخر من ألوان الإعجاز القرآني المتعدد الأوجه ،التي تؤيد صدق نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ،وهو الأمي الذي لم يقرأ كتابا، و لم يخطه بيمينه **" وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ**) لعنكبوت: 48

وأملي أن يجد البحث موضعا بين البحوث التي سجلت إضافة في إثراء المكتبات العربية والإسلامية ، سيما ما تعلق منها بقسم الدراسات القرآنية المعاصرة ، كما أرجو أن لاينتهي القارئ منه إلا بزيادة تشوقه وتشوفه للإطلاع على المزيد مما كتب وسيكتب من الأبحاث والدراسات الأكثر شمولا و توسعا.

الإشكالية

و البحث يتمحور أساسا حول لمنهج الذي سلكه القرآن الكريم أثناء عرضه للحوادث التاريخية ، وكيف نجح أسلوبه في تربية الأنفس وتزكيتها، ليصل بها إلى مصاف خير أمة أخرجت للناس على الإطلاق.

وأمام هذا الموقف الجلل، تبرز عدة تساؤلات في المقام، أهما : ما المراد بالحوادث التاريخية المعهودة عند العرب ؟ وماهي أصنافها وأقسامها ؟ وهل كانت على درجة واحدة من القبح أو

الحسن؟ وكيف تصدى القرآن الكريم لعلاج السيء منها؟ ومالمنهج الذي سلكه في عرضها ؟ و هل هو منهج واحد أم مناهج متعددة ؟ وما الحكمة في ذلك ؟ .

هذه الأسئلة كلها، إضافة إلى فروعها ومتعلقاتها، قد حاولت الإجابة عنها من خلال هذه المذكرة التي جاءت بعنوان: منهج القرآن الكريم في عرض الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب .

خطة البحث

والبحث جاء عبر مقدمة و فصلين وخاتمة .

تعلق الفصل الأول بالمصطلحات والمفاهيم ، وهو ينقسم إلي مبحثين أيضا ،وكل مبحث مقسم إلى مطالب ،ألحقت بكل مطلب عناوين فرعية حسب مايقتضي الحديث، في حين تعلق الفصل الثاني بمنهج القرآن الكريم والطريقة التي عرض بها هذه الحوادث التاريخية، وكيفة معالجة القرأن الكريم للحوادث المذمومة في مختلف الأصعدة ، وقد قسمت هذا الفصل أيضا إلى مبحثين، وكل مبحث إلى مطالب ،خصصت في المبحث الأول الحديث عن بيان المنهجين الوصفي والتاريخي مع التمثيل ، في حين تحدثت في المبحث الثاني عن كيفية معالجة القرآن الكريم لمختلف أنواع الحوادث التاريخية التي هي في الجملة قسمان : عقدي وعملي ، بالإضافة إلى حوادث ذات طابع إقتصادي وتجاري .

المنهج المتبع

ولزخامة الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب، التي تضمنتها سور القرآن الكريم، والتي لا يمكن أن تفي بها مثل هذه الأعمال المتواضعة ، وأن أسلوب الإستقراء قد ينأى بالبحث عن الإطار الأكاديمي المعمول به في مثل هذا ،رأيت الإعتماد على المنهج التحليلي أولى من غيره لتوضيح طرائقالقرآن الكريم في عرض تلك المناهج وسوق الأمثلة من الحوادث ، التي جاءت على سبيل المثال لا على سبيل الحصر أو الإستقراء.

ولقد حرصت في منهجي على كتابة آيات القرآن الكريم وفق رسم المصحف العثماني ، وتخريج الأحاديث من مظانها ، وعزو الأقوال إلى أصحابها ، وذكر الكتب والمصادر التي إستقيت منها المعلومة ، كما أنني ترجمت للأعلام المغمورين والمشار إليهم في الموضوع ، وتركت المعلومين منهم لشهرتهم، كما عرفت ببعض المدن والأماكن والقبائل التي تذكر في البحث .

ولارتباط الموضوع بالنصوص القرآنية إرتباطا وثيقا ،فإنه من الطبيعي جدا أن كتب التفاسير ،ومفردات القرآن الكريم والدراسات اللغوية والتاريخية ، تمثل المعين الأول ومصادر الموضوع .

وجعلت كل من تفاسير الطبري، والقرطبي، والزمخشري ، وابن كثير، وابن عاشور، وكتاب البداية والنهاية وغريب القرآن في طليعة المصادر التي اعتمدت عليها ، بالإضافة إلى غيرها من الكتابات والمشاركات المعاصرة المنشورة في الرسائل أو على المواقع الإلكترونية.

الدراسات السابقة

ومعلوم أن عناية الدارسين والباحثين في رياض العلوم القرآنية لم تنقطع قديما وحديثا، وقد كانت لهم صولات وجولات بين مطول مهم ومختصر مفيد ، ومن ثم كانت خدمتهم لمواضيع القرآن الكريم ومباحثه، يحدوهم الشغف الكبير لاكتشاف المزيد من درر القرآن الكريم الذي لا تشبع منه العلماء ،ولا يخلق على كثرة الرد، و لاتنقضي عجائبه.....

وكان كل من الجلال السيوطي، و إبن قتيبة الدينوري، والزجاج ، والفراء ، وشيخ الإسلام إبن تيمية و علم الدين الزركشي، و الداني ، وغيرهم كثير من فرسان هذا الميدان وأبطاله ، ممن كانت لهم مشاركات فعالة ضمن كوكبة من العلماء شرفت أعمالهم كل العصور، وملئت علومهم مكتبات الدنيا، فجزاهم الله عنا خير الجزاء .

كما كان للباحثين المعاصرين أياد بيضاء ،وحسنات مشكورة ، لعل أبرزهم منهم الأستاذ القدير عبد العظيم الزرقاني ، صاحب مناهل العرفان،ومحمود شاكر صاحب التصانيف الجليلة ،والدكتوربيومي مهران صاحب مؤلف سلسلة دراسات تاريخية في القرآن الكريم، إلى جانب الأطروحات الأكاديمية التي أثرت هذا الفن بإفادات لايستهان بها ، وقد جعلت منها نبراسا في عملي لعلاقتها المباشرة بالموضوع ، بالإضافة إلى المساهمات العديدة عبر الدوريات والمجلات لا سيما الإلكترونية منها .

وإنه ليحدوني إيمان عميق ، ويقين راسخ ،من أن أعمالا جليلة – علاوة على التي مضت – ستنير الدرب، وستذود عن حياض هذه الأمة من خلال التصدي لشبهات المغرضين في كل عصر .

الصعوبات

والله يشهد أنني لم أل جهدا في سبيل أن يصل هذا العمل إلى الدرجة المرضية في الشكل والمضمون،وبقدر ما توفر بين يدي من مصادر ومراجع، على الرغم من الصعوبات التي قد تعترض كل محاولة جادة كما هو معلوم .

و تأتي في مقدمة هذه الصعوبات ظروف الوباء العالمي- الله أسال أن يرفعه عن أمتنا – وما إنجر عنه من أثار وتبعات باتت انعكاساتها واضحة على البحث العلمي ، إذ لم تعد نعمة التقلب بين الكتب والمكتبات يسيرة مثلما كان عليه الأمر سابقا قبل بداية الجائحة .

وإذا كانت بحوثا أخرى تشكو في باب العوائق شح المصادر، أو حتى ندرتها ، فإن الأمر هنايختلف ، إذ مع زخامة المصادر والمراجع طفحت مشكلة أخرى، تمثلت في وجود عناصر البحث ومادته مبثوثة بين تخصصات شتى منها التفسير والتاريخ الإسلامي، وعيون الشعر العربي في العصرين الجاهلي والإسلامي، والتاريخ القديم ونحو ذلك ، الأمر الذي يتطلب من أي باحث كان، مدة كافية من الوقت ،مع صبر وتأني، حتى يتسنى له الفرز والتدقيق والتحري .

و مالا يمكن تجاهله أنه في مقابل تلك الصعوبات برزت محفزات علاوة على البواعث السابقة ،فقد كنت سعيدا مسرورا بموافقة ومرافقة أستاذي الكريم مراد بلخير، بعد تكرمه بقبول الإشراف على البحث ، وحظيت بتوجيهاتنيرة منهاإستفدت منها طيلة مدة البحث ، بل ومنذ قبل الشروع فيه أصلا ، مع صبره العميق على كثرة تواصلي به، و إلحاحي في طلب المعلومة منه رغم إرتباطاته الأخرى المهنية والإجتماعية .

وهو ما أمر يعكس ميزتان : حب الأستاذ بلخير للخير خاصة لطلبته ، وتشجيعه لكل فرصة يتفرس فيها موهبة جديدة .

وزاد من غبطتي وشرفي – وقد أوشك العمل على نهايته – أن يحظى هذا العمل المتواضع بقراءته من طرف أسماء لها وزنها الثقيل في الساحة العلمية بوهران، وتمثل قامات مباركة في قسم العلوم الإسلامية بجامعتنا هذه ، أعني على الخصوص كلا من السيدين الفاضلين رئيس لجنة المناقشة الدكتور رابح صرموم .

والأستاذ الدكتور نذير أوسالم ،الذي بعث فينا – ونحن طلبته – روح التذوق والتشوق لبلاغة القرآن الكريم ، وبيانه وإعجازه ،دون أن أنس فضل جميع أساتذتنا الكرام ملتمسا عفوهم ورضاهم ، وهم الذين لم يبخلوا علينا بما حباهم الله وأفاض عليهم من علوم ومعارف خلال المسيرة الدراسية ، رغم ظروف الخوف من الوباء التي صاحبت المراحل الدراسية.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم ، عليه توكلت وإليه أنيب وهو رب العرش العظيم .

الفصل الأول : في المصطلحات والمفاهيم

المبحث الأول : تعريف الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب

المطلب الأول : في تعريف المهج و الحوادث التاريخية

تعريف المنهج

النهج في اللغة من أصله "نهج : بين واضح. وأنهج الطريق: وضح واستبان، وصار نهجاً واضــحاً) بيناً. ومنهج الطريق: وضحه .والمنهاج كالمنهج." [1]

و في الاصطلاح : "فالمنهج هو فن التنظيم لسلسلة من الأفكار مــن أجــل الوصــول والكشف عن الحقيقة وقد يعني أيضاً تلك الخطوات العملية التي يرسمها الباحث لنفــسه فـــي ترتيب أفكاره، وتوجيه موضوعات بحثه توجيهاً يصل بها الحقيقة، وهو ينتقل من نقطة إلـــى أخرى، ومن قضية إلى أخرى بأدلة ذهنية أو مادية للوصول إلى "استنباط الأحكام العامة من النتائج الكلية، والخروج بالمبادئ والنظريات التي تمثل العلوم والمعارف" [2]

تعريف الحوادث :الحوادث جمع حادثة وأصلها حدث .

"الْحَاءُ وَالدَّالُ وَالثَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ كَوْنُ الشَّيْءِ لَمْ يَكُنْ. يُقَالُ حَدَثَ أَمْرٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ."

و" حَدَثَ حُدوثاً وحَداثَةً: نَقيضُ قَدُمَ، وتُضَمُّ دالُه إذا ذُكِرَ مع قَدُمَ.

ـــحِدْثانُ الأَمْرِ: أوَّلُهُ وابْتِداؤُه، كحَداثَتِهِ،

ــ حِدْثانُ من الدَّهْرِ: نُوَبُهُ، كحوادِثِهِ وأحْداثِهِ.

ــ أَحْداثُ: أمْطارُ أوَّلِ السَّنَة" [3]

1- ابن منظور، جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت" نهج."

2 - ربيع، عبد الله، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، العدد 9 ،سنة 1979 ،ص81 .

3- ابن فارس أحمد بن زكرياء /معجم مقاييس اللغة - ت :عبد السلام محمد هارون - ج 2- دار الفكر - بيروت - سنة 1979 م، ص 36 ، مادة ح د ث ت .

المطلب الثاني / معنى الحوادث المعهودة التاريخية عند العرب

تعريف المعهودة

أصل الكلمة من العهد

قال ابن فارس "الْعَيْنُ وَالْهَاءُ وَالدَّالُ أَصْلُ هَذَا الْبَاب عِنْدَنَا دَالٌّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، قَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ الْخَلِيلُ. قَالَ: أَصْلُهُ الِاحْتِفَاظُ بِالشَّيْءِ وَإِحْدَاثُ الْعَهْدِ بِهِ. وَالَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ الِاحْتِفَاظِ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي يَرْجِعُ إِلَيْهِ فُرُوعُ الْبَاب. فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ عَهِدَ الرَّجُلُ يَعْهَدُ عَهْدًا، وَهُوَ مِنَ الْوَصِيَّةِ. وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْعَهْدَ مِمَّا يَنْبَغِي الِاحْتِفَاظُ بِهِ. وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ الْعَهْدِ الَّذِي يُكْتَبُ لِلْوُلَاةِ مِنَ الْوَصِيَّةِ، وَجَمْعُهُ عُهُودٌ. وَالْعَهْدُ: الْمَوْثِقُ[1]"

ويطلق العهد أيضا ويراد به " الأمانُ، واليمينُ، والموثقُ، والذمّةُ، والحِفاظُ، والوصيةُ.وقد عَهِدْتُ إليه، أي أوصيته"[2].

قال ابن منظور : و من مادة ع ه د أيضا : "الُمعاهَدَةُ والإعْتِهادُ والتعاهُدُ والتَّعَهُّدُ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِحداثُ العَهْدِ بِمَا عَهِدْتَه. وَيُقَالُ لِلْمُحَافَظِ عَلَى العَهْدِ: مُتَعَهِّدٌ[3]

وبالجملة كل معاني العهد ومشتقاهما تدور على الملازمة والمحافظة والإعتياد والمواظبة على الشيء ، ومن هنا إقترب معنى العهد بالعادة والمعتاد من الشيء حفظ الشيء ومراعاته حالا بعد حال، وسمّي الموثق الذي يلزم مراعاته " [4]

1- ابن فارس معجم مقاييس اللغة ، مادة عهد .

2- الجوهري إسماعيل بن حماد ، تاج اللغة وصحاح العربية ، ت: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط4 1407- هـ - 1987 م ، ج 2 ، ص 516 ، مادة عهد .

3- ابن منظور محمد بن مكرم ، لسان العرب ج 3 ، ص11 مادة، عهد .

4- لأصفهاني، الحسين بن محمد ، الراغب مفردات غريب القرآن مادة عهد ، ص506.

وقد وردت هذه اللفظة في نصوص كثيرة من القرآن الكريم ، بصيغة المصدر (عهد) تارة، و بالإشتقاق والتصريف على أوزان مختلفة تارة أخرى ، من ذلك قول الله تعالى :

- "ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ " [1]
- (يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ)[2]
- قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ [3]
- (وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ)[4]

معنى التاريخية: وأما عن معنى :(التاريخية) فهي من التاريخ، الذي يراد به :" مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع معين من الوقائع التي تصل بالأحياء من الناس في مجتمع ما خلال توالي الأزمنة" . أي هو علم يتضمن ذكر الوقائع التي تتصل بالبشر في فترة محدودة من الزمن الماضي " [5]

1 - البقرة ، آية رقم 27

2 - سورة البقرة، آية رقم 40

3- سورة رة البقرة ، آية رقم 40 الأعراف، آية رقم 134.

4- سورة الزخرف آية رقم 48.

5 - مقدم رشيدة ، العرض التاريخي في القرآن الكريم ، خصائصه وسماته الفنية ، مذكرة ماجستير، 2007/2006 جامعة وهران ص ، 4 .

وقد أشارت الباحثة إلى تعريفات أخرى ، غير أنها تبدو كلها متقاربة ، وتدور في الغالب حول ما جاء في التعريف المذكور. كما أوضحت أن مصطلح " التاريخ" لم يرد في القرآن الكريم أو في الأحاديث النبوية أو في الشعر الجاهلي.

.

العرب

"العرب" إسم علم على جنس معين من الشعوب ، يطلق دوما ويراد به الأمة المعروفة المعلومة بين الأمم، و سميت بذلك من الإفصاح والبيان.

يقول إبن فارس :"فَأَمَّا الْأُمَّةُ الَّتِي تُسَمَّى الْعَرَبُ فَلَيْسَ بِبَعِيدٍ أَنْ يَكُونَ سُمِّيَتْ عَرَبًا مِنْ هَذَا الْقِيَاسِ لِأَنَّ لِسَانَهَا أَعْرَبُ الْأَلْسِنَةِ، وَبَيَانُهَا أَجْوَدُ الْبَيَانِ. وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا، الْحَدِيثَ الَّذِي جَاءَ» " :إِنَّ الْعَرَبِيَّةَ لَيْسَتْ بَابًا وَاحِدًا، لَكِنَّهَا لِسَانٌ نَاطِقٌ." « وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُ الْعَرَبِ: مَا بِهَا عَرِيبٌ، أَيْ مَا بِهَا أَحَدٌ، كَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ، مَا بِهَا أَنِيسٌ يُعْرِبُ عَنْ نَفْسِهِ. قَالَ الْخَلِيلُ: الْعَرَبُ الْعَارِبَةُ هُمُ الصَّرِيحُ. وَالْأَعَارِيبُ: جَمَاعَةُ الْأَعْرَابِ. وَرَجُلٌ عَرَبِيٌّ. قَالَ: وَأَعْرَبَ الرَّجُلُ، إِذَا أَفْصَحَ الْقَوْلَ، وَهُوَ عَرَبَانِيُّ اللِّسَانِ: فَصِيحٌ. وَأَعْرَبَ الْفَرَسُ: خَلَصَتْ عَرَبِيَّتُهُ وَفَاتَتْهُ الْقِرْفَةُ. وَالْإِبِلُ الْعِرَابُ، هِيَ الْعَرَبِيَّةُ. وَالْعَرَبُ الْمُسْتَعْرِبَةُ هُمُ الَّذِينَ دَخَلُوا بَعْدُ فَاسْتَعْرَبُوا وَتَعَرَّبُوا." [1]

عاد أول ملوك الأرض بعد نوح – عليه السلام

وأول الشعوب العربية بعد الطوفان هم عاد الأولى، الذين ينتسبون إلى جدهم عاد، وهو " أول من ملك في الأرض، قول هذه الطائفة ، بعد أن أهلك الله عز وجل الكفار من قوم نوح ، وذلك من قوله تعالى : واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة[2]" [3] .

ثم جعل الله تعالى من نسل العرب البائدة الأولى[4]، أقواما خلفوا عادا، ورثوهم في الحكمة والقوة والعقل ، كما ورثوهم في الرياسة والملك ،وقد كانت: " نفوسهم قوية ،

1- ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، مادة ع. ر .ب ،ج 4 ،ص 300 .

2 - سورة الأعراف ، آية رقم 69 .

3 - المسعودي علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج2 ، ط1 ، المكتبة العصرية – بيروت – سنة 2005 ، ص 31 .

4 - من البداءة ، أي الإبتداء ، وليس من الإنقراض .

وأكبادهم غليظة ، و لم يكن في الأرض أمة هي أشد بطشا وأكثر أثارا وأقوى عقولا وأكثر أحلاما من قوم عاد ، و لم يكن الهلك يعرض في أجسامهم ، لقوة أثار الطبيعة فيها ، وما أوتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة على حسب ما أخبر الله عز وجل" [1]

يقول الأستاذ إبن عاشور:" أيْ خَلَفَ بِكم أُمَمًا مَضَتْ قَبْلَكم كَما قالَ تَعالى حِكايَةً عَنِ الرُّسُلِ في مُخاطَبَةِ أقْوامِهِمْ" :﴿واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكم خُلَفاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[2] "﴿واذْكُرُوا إذْ جَعَلَكم خُلَفاءَ مِن بَعْدِ عادٍ[3]﴾." [4]

و مساكن العرب الأولى بالأحقاف، " كانت مساكنهم الشِّحْر، من أرض اليمن وما وَالى بلاد حضرموت إلى عُمَان" [5]

كما بعث الله في الشعوب العربية القديمة أنبياء كثر ، ولا حجة في حديث: "أربعة أنبياء من العرب" [6] ،لأنه خبر غير ثابت برأي النقاد و المحدثين .

وهكذا يصير المعنى المراد من العنوان بعد الشرح والتحليل: "القضايا المألوفة والمعتادة عند العرب في القرآن الكريم" .

1- المسعودي ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 21 .

2 - سورة الأعراف ، آية رقم 69.

3 - سورة الأعراف ، آية رقم 74.

4 - إبن عاشور محمد الطاهر ، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر ، تونس، 198 ، ، ج 8 ، ص210.

5 - الطبري محمد بن جرير ، جامع البيان في تأويل القرآن ،ت :أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة،بيروت ،ط 1، 2000 م، ج 12، ص 507 .

6 - أخرجه ابن حبان فى صحيحه و الآجرى فى الأربعون مطولا ، و قال الآجرى عقبه خبر موضوع . الحديث تفرد به إبراهيم بن هشام بن يحي الغساني عن أبيه وهو متروك قال ابن كثير في تفسيره : (ولا شكَّ أنَّه قد تكلم فيه غير واحد من أئمَّة الجرح والتعديل من أجل هذا الحديث) . ج2 ، ص 470 .

المطلب الثالث : الفرق بين الحوادث المعهودة والحوادث غير المعهودة عند العرب

من خلال التعريفات السابقة ، يتجلى الفرق واضحا بين الحوادث المعهودة عند العرب ،والحوادث الطارئة .

فالأولى هي المعتادة المتكررة عندهم ، سواء كانت إعتقادية أم عملية ، قولية أم فعليه ، وقد تكون منهم عن عمد ووفق إرادتهم، كما قد تكون عفوية ناتجة عن الإعتياد المطلق دون تكلف وعناء .

في حين أن الحوادث غير المعهودة لم تكن في الغالب بإرادتهم، وإن كانوا أحيانا هم طرفا فيها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر ،كما أنها غير متكررة وغير معتادة أو مألوفة لديهم ، ومثال ذلك حادثة الفيل التي هم خلالها أبرهة بن الصباح الحبشي بهدم الكعبة و لم ينل، وحادثة سيل العرم والتي على إثرها تحطم سد مأرب ، رغم أنهما حاثتان عظيمتان في تاريخ العرب قبل الإسلام، إلا أنهما غير معهودتان لديهم ، ومن ثم يصبح مثل هذا النوع من الحوادث غير معني بموضوع البحث.

المبحث الثاني : أقسام الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب

وبنظرة إستقرائية عامة إلى هذه الحوادث التاريخية التي كانت معتادة لدى العرب في الجاهلية ، والتي ذكرت في نصوص القرآن الكريم ،نجد أنها لم تكن على شاكلة واحدة ، إذ منها ما يتعلق بإعتقاداتهم ، ومنها ما يتعلق بسلوكاتهم ، وحوادث تاريخية ذات طابع عملي تتمثل أساسا في الأخلاق والسير والسلوكات والمعاملات الإجتماعية، وهي أيضا على صنفين:

أ- سلوكات وأفعال فاسدة : أخطرها وأد البنات، واستحلال للربا ،وأكل مال اليتيم ، والإعتداء على حق المرأة في التركات، والتعسف في سائر شؤونها، وكثرة الحروب لأتفه الأسباب وما إلى ذلك ....

- وسلوكات طيبة: كالشجاعة، والإقدام، والوفاء بالعهد، وإكرام الضيف ونصرة المظلوم ، والذود عن الشرف والإعتزاز به، والتنافس في حفظ الأعراض، وتحري الصدق، و اجتناب الكذب والغدر والخيانة ، وغض البصر وحفظ العهد ،وصون الأمانة . وكف الأذى. وسائر العادات المحمودة التي أبقى عليها الإسلام وأشاد بها، وقد شهدت للعرب بهذا الكثير من الدلائل .

ثم قسم أخر من الحوادث المألوفة لديهم ، إضطرتهم إليه ظروف معيشتهم ودفعتهم إليه دفعا ،مثل الرحلات والتنقل من بلد إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، ضربا في الأرض و طلبا للرزق ، وسعيا للتوسعة ، حتى أنزل المولى تعالى سورة بأكملها تخص هذا القسم، وهي السورة التي سميت بأعظم حي من أحياء العرب وأشرفها نسبا في الجاهلية والإسلام "قريش" التي إليها ينتسب خاتم الأنبياء و الرسل، وسيد ولد أدم. [1]

1 - حديث: (إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنانَةَ مِن ولَدِ إسْماعِيلَ، واصْطَفَى قُرَيْشًا مِن كِنانَةَ، واصْطَفَى مِن قُرَيْشٍ بَنِي هاشِمٍ، واصْطَفانِي مِن بَنِي هاشِمٍ). أخرجه مسلم من طريق واثلة بن الأسقع الليثي ، تحت رقم2276 .

المطلب الأول حوادث معهودة ذات طابع عقائدي

يمكن تصنيف المعتقدات هي الأخرى إلى صنفين : معتقدات باطلة ،وهي الغالب ،وعليها مناط بعثة الرسل والأنبياء، أخطرها الإشراك بالله بمختلف صوره وأشكاله، من عبادة الأوثان وإعتقاد النفع والضر فيها ،والتشفع بها عند الخالق جل وعلا ، إلى التطير، والنذر والذبائح لغير الله ، وإقتسام الأنصبة مع الله، إلى غير ذلك من العبادات الفاسدة كعبادة الأفلاك والكواكب ونحوهما....

و معتقدات نبيلة :وهي قليلة مقارنة لها بالصنف الأول، وهي تمثل بقايا الملة الإبراهيمية وبصماتها في شبه الجزيرة العربية، منها الإيمان بوجود خالق للكون مدبر لأمره، ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [1]

ومنها الحج وتعظيم البيت العتيق، والدفاع عن حرمته ،و تعظيم الأشهر الحرم، وترك القتال فيها،وسقاية الحاج، وعمارة البيت، وخدمة الحجاج ، وتيسير أمورهم ، ونحو ذلك ...

أ- معتقدات مذمومة

وهذا القسم من الحوادث التاريخية ، حفلت به الكثير من نصوص القرآن الكريم ، تارة على جهة الذم والتوبيخ ، وتارة أخرى على جهة الوصف وإبراز مدى الفساد والسفه الذي وقع في مستنقعه المجتمع الجاهلي .

و كانت سورة الأنعام من أعظم سور القرآن الكريم، وأكثرها ذكرا ووصفا لمختلف الألوان الإعتقادية الفاسدة التي عهدها العرب في الجاهلية ، المضحكة طورا والمؤسفة طورا أخر.

1- سورة الزمر ، آية رقم 38 .

ومن هذه المعتقدات الفاسدة التي إعتادوها في ظعنهم وسفرهم ،وفي ليلهم ونهارهم ،وسلمهم وحربهم :

01- تقسيم الأنصبة من الزروع والأنعام بين الله والشركاء

وصف المولى تعالى من عادات العرب في الجاهلية أنهم أشركوا في القسمة والنصيب، سواء كان ذلك بالزروع والثمار، أم بالأنعام والضأن والإبل ،ونحو ذلك ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]

و " اختلف أهل التأويل في صفة النصيب الذي جعلوا لله، والذي جعلوه لشركائهم من الأوثان والشيطان.فقال بعضهم: كان ذلك جزءًا من حُروثهم وأنعامهم يُفْرِزُونه لهذا وجزءًا آخر لهذا[2].

و من شدة سفههم أن قالوا :"هذا لشركائنا" = وإن نصيب شركائهم لا يصل منه إلى الله، بمعنى: لا يصل إلى نصيب الله، وما كان لله وصَل إلى نصيب شركائهم." [3]

فقد إتخذوا شركاء لله ، وصاروا يتزلفون إليهم بهذه الأنصبة و القربات ، على النمط الذي رأينا،وليس كل أفراد المجتمع العربي آنذاك كان يفعل ذلك ، فمنهم من بقي متمسكا بآثار الملة الإبراهيمية ، و منهم من ورث المذهب الأريسي الموحد المسيحي الذي كانت أنطاكية مدرسته الأولى ومنطلقه [4] ، ولكن "لمّا شاعَ ذَلِكَ عِنْدَهم صارَ كالعِلْمِ بِالغَلَبَةِ،" [5]

والأغرب في أفعالهم هذه ، أن حملتهم سذاجة العقول إلى تخصيص أحمال الأنعام مسبقا لمعبوداتهم ، و قبل أن توضع أصلا ، ما جعل بعضهم يرى في مثل هذه التصرفات أمرا مثيرا للضحك : "وأنهم كانوا يسمون ما في بطون بعض الأنعام من الحمل لذكورهم، ويجعلونه

1 - سورة الأنعام ، آية 136.

2 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر السابق ، ج 12، ص131.

3 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر نفسه ، ج12 ، ص134.

4- نسبة الى أريوس الليبي راهب مسيحي قبل الاسلام انفصل على الكنيسة الكاثوليكية وأقر بالتوحيد ونسبته إلي ليبيا التي كانت تطلق على كامل الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي .وفي أباعه ورد حديث أبي سفيان

5 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص96.

محرما على إناثهم. إلا أن يترل الحمل ميتا فعندئذ يشترك فيه الذكور والإناث! مع نسبة هذه الشريعة المضحكة إلى الله" [1]

02- تحجير الأنعام والزروع

قوله تعالى " **وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ** "[2]

والمقصود بالأنعام في النص القرآني: الإبل والبقر والغنم [3]

وأما الحرث فالمراد به هنا:" الزَّرْعُ والشَّجَرُ، وهو في الأصْلِ مِن إطْلاقِ المَصْدَرِ عَلى إسْمِ المَفْعُولِ، ثُمَّ شاعَ ذَلِكَ الإطْلاقُ حَتّى صارَ الحَرْثُ حَقِيقَةً عُرْفِيَّةً في الجَنّاتِ والمَزارِعِ" [4]

وأما "الشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن.. من الكهنة والسدنة والرؤساء من الإنس، ومن القرناء الموسوسين من الجن، بالتعاون والموالاة فيما بينهم!"[5]

و " الحَجْر والتحجير: أن يجعل حول المكان حجارة، يقال: حَجَرْتُهُ حَجْرا، فهو محجور، وحَجَّرْتُهُ تحجيرا فهو مُحَجَّر، وسمّي ما أحيط به الحجارة حِجْراً، وبه سمّي حجر الكعبة وديار ثمود، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾[6]، وتصوّر من الحجر معنى المنع المنع لما يحصل فيه، فقيل للعقل حِجْر، لكون الإنسان في منع منه ممّا تدعو إليه " [7]

1- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، في ظلال القرآن ، دار الشروق ، بيروت، القاهرة ، ط17 ، 1412 هـ ، ج3، ص1214 .
2 - سورة الأنعام ، آية رقم 138.
3 - لسان العرب ، ج12 ، ص 585. مادة نعم .
4 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج 8، ص95.
5 - سيد قطب ، المصدر السابق ،ج 3، ص 1218 .
6- سورة الحجر ، آية رقم 80 .
7 - الراغب الأصفهاني الحسين بن محمد ، المفردات في غريب القرآن ، ت: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت ، ط1 - 1412 هـ ، ص220 . مادة حجر .

و " الْحَاءُ وَالْجِيمُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ الْمَنْعُ وَالْإِحَاطَةُ عَلَى الشَّيْءِ. فَالْحَجْرُ حَجْرُ الْإِنْسَانِ، وَقَدْ تُكْسَرُ حَاؤُهُ. وَيُقَالُ حَجَرَ الْحَاكِمُ عَلَى السَّفِيهِ حَجْرًا ؛ وَذَلِكَ مَنْعُهُ إِيَّاهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مَالِهِ " [1]

والحجر لفظ مشترك جامع " وَأَصْلُهُ الْمَنْعُ. وَسُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا لِمَنْعِهِ عَنِ الْقَبَائِحِ. وَفُلَانٌ فِي حِجْرِ الْقَاضِي أَيْ مَنْعِهِ. حَجَرْتُ عَلَى الصَّبِيِّ حَجْرًا. وَالْحِجْرُ الْعَقْلُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:" هَلْ فِي ذلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ) [2] وَحِجْرُ الْإِنْسَانِ وَحَجْرُهُ لُغَتَانِ، وَالْفَتْحُ أَكْثَرُ" [3]

الواضح من النص أن المشركين قسموا ممتلكاتهم إلى ثلاثة أصناف في التحجير:

- أنعام حرموا ركوبها والإنتفاع بها بأي وجه من أوجه الإنتفاع ، قد تركوها سائبة لأنهم وهبوها لألهتهم – حسب زعمهم.
- وأنعام يذبحونها، غير أنهم لا يذكرون إسم الله عليها، لأنها مخصصة لأصنامهم أيضا.
- وصنف ثالث يحرم الإنتفاع من ألبانها ولحومها وركوبها إلا لمن عينوه، والظاهر أن من عينوه هنا هم خدام الأصنام وسدنتها .

أصناف الحجر

يقول الأستاذ الطاهر بن عاشور معلقا عن تصرفهم هذا:

"صِنْفٌ مُحْجَرٌ عَلى مالِكِهِ انْتِفاعُهُ بِهِ، وإنَّما يَنْتَفِعُ بِهِ مَن يُعَيِّنُهُ المالِكُ، والَّذِي يُؤْخَذُ مِمّا رُوِيَ عَنْ جابِرِ بْنِ زَيْدٍ وغَيْرِهِ: أنَّهم كانُوا يُعَيِّنُونَ مِن أنْعامِهِمْ وزَرْعِهِمْ وثِمارِهِمْ شَيْئًا يَحْجُرُونَ عَلى أنْفُسِهِمُ الِانْتِفاعَ بِهِ، ويُعَيِّنُونَهُ لِمَن يَشاءُونَ مِن سَدَنَةِ بُيُوتِ الأصْنامِ وخَدَمَتِها، فَتُنْحَرُ أوْ تُذْبَحُ عِنْدَما يَرى مَن عُيِّنَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَتَكُونُ لِحاجَةِ النّاسِ والوافِدِينَ عَلى بُيُوتِ الأصْنامِ وإضافَتِهِمْ، وكَذَلِكَ الزَّرْعُ والثِّمارُ تُدْفَعُ إلى مَن عُيِّنَتْ لَهُ، يَصْرِفُها حَيْثُ يَتَعَيَّنُ، ومِن هَذا الصِّنْفِ أشْياءُ مُعَيَّنَةٌ بِالِاسْمِ، لَها حُكْمٌ مُنْضَبِطٌ مِثْلُ البَحِيرَةِ، فَإنَّها لا تُنْحَرُ

---

1 – ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ج2 ، ، ص 138 . مادة ح.ج.ر .

2 – سورة الفجر، آية رقم 5 .

3 – القرطبي أبو عبد الله، محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته السنة ،ت : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ط2 ، 1964 م، ج7، ص94 .

ولا تُؤَكَلُ إلّا إذا ماتَتْ حَتْفَ أنْفِها، فَيَحِلُّ أكْلُها لِلرِّجالِ دُونَ النِّساءِ، وإذا كانَ لَها دَرٌّ لا يَشْرَبُهُ إلّا سَدَنَةُ الأصْنامِ وضُيُوفُهم، وكَذَلِكَ السّائِبَةُ يَنْتَفِعُ بِدَرِّها أبْناءُ السَّبِيلِ والسَّدَنَةُ، فَإذا ماتَتْ فَأكْلُها كالبَحِيرَةِ، وكَذَلِكَ الحامِي، كَما تَقَدَّمَ في سُورَةِ المائِدَةِ." [1]

وعن الصنف الثاني يقول :

والصِّنْفُ الثّانِي: أنْعامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها؛ أيْ: حُرِّمَ رُكُوبُها، مِنها الحامِي: لا يَرْكَبُهُ أحَدٌ، ولَهُ ضابِطٌ مُتَّبَعٌ كَما تَقَدَّمَ في سُورَةِ المائِدَةِ، ومِنها أنْعامٌ يُحَرِّمُونَ ظُهُورَها بِالنَّذْرِ، يَقُولُ أحَدُهم: إذا فَعَلَتِ النّاقَةُ كَذا مِن نَسْلٍ أوْ مُواصَلَةٍ بَيْنَ عِدَّةٍ مِن إناثٍ، وإذا فَعَلَ الفَحْلُ كَذا وكَذا، حَرُمَ ظَهْرُهُ، "[2]

"والصِّنْفُ الثّالِثُ: أنْعامٌ لا يَذْكُرُونَ إسْمَ اللَّهِ عَلَيْها؛ أيْ: لا يَذْكُرُونَ إسْمَ اللَّهِ عِنْدَ نَحْرِها أوْ ذَبْحِها، يَزْعُمُونَ أنَّ ما أُهْدِيَ لِلْجِنِّ أوْ لِلْأصْنامِ يُذْكَرُ عَلَيْهِ إسْمُ ما قُرِّبَ لَهُ، ويَزْعُمُونَ أنَّ اللَّهَ أمَرَ بِذَلِكَ لِتَكُونَ خالِصَةَ القُرْبانِ لِما عُيِّنَتْ لَهُ، فَلِأجْلِ هَذا الزَّعْمِ قالَ تَعالى: ﴿افْتِراءً عَلَيْهِ﴾ إذْ لا يُعْقَلُ أنْ يُنْسَبَ إلى اللَّهِ تَحْرِيمُ ذِكْرِ إسْمِهِ عَلى ما يُقَرَّبُ لِغَيْرِهِ لَوْلا أنَّهم يَزْعُمُونَ أنَّ ذَلِكَ مِنَ القُرْبانِ الَّذِي يَرْضى اللَّهُ تَعالى؛ لِأنَّهُ لِشُرَكائِهِ، كَما كانُوا يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ إلّا شَرِيكًا هو لَكَ تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ. " [3]

03- قتل الأولاد قربة للأصنام

تقديم الأولاد قرابين للأصنام مما كان معهودا لديهم في الجاهلية، وقصة عبد المطلب المبسوطة في كتب السير، والمتعلقة بنذر واحد من أبنائه للأصنام شكرا لله على عودة ماء زمزم[4] أوضح مثال على ذلك.

وقتل البراءة من دون حق مما شنع الله عليهم فيه،يقول الحق جل علاه:

---

1 – ابن عاشور ،محمد الطاهر ، المصدر السابق ج 8 ، ص106.

2 – ابن عاشور ، محمد الطاهر، نفس المصدر ج 8 ، ص107 .

3 – ابن عاشور، محمد الطاهر ، المصدر السابق ج 8 ، ص108.

4– ممن أشار إلى هذه القصة ابن هشام ، وقد ذكر أن القرعة قد وقعت على عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ [1]

ومن النص القرآني يتبين أن الذي دفعهم إلى الإشراك بالله هو نفسه من زين لهم قتل أولادهم سفها، ذلك أنه من شؤم المعصية أن تجر إلى مثلها، وكل ذنب يسوق صاحبه إلى أكبر منه ، والذي لا يتورع في الكذب على الله تعالى والإشراك به، تهون عليه كل مصيبة وكل جريمة دون ذلك ، حتى تهون عليه فلذات كبده فيذبحهم ويقتلهم إرضاء لمعبوداته من الأوثان التي لا تبصر ولا تسمع ولا تغني من الله شيئا.

و" هَذا العَطْفِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قالُوهُ هو مِن تَلْقِينِ شُرَكائِهِمْ وسَدَنَةِ أصْنامِهِمْ كَما قُلْنا في مَعْنى زَيَّنَ لَهم شُرَكاؤُهم." [2]

وقد قضى الله بالخسران المبين للذين إرتكبوا هذه الفعلة الدنيئة "

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [3]

والمعنى : أنه " قد هلك هؤلاء المفترون على ربهم الكذبَ،العادلون به الأوثانَ والأصنام، الذين زين لهم شركاؤهم قتل أولادهم، وتحريم ما أنعمت به عليهم من أموالهم،فقتلوا طاعة لها أولادهم، وحرّموا ما أحل الله لهم وجعله لهم رزقًا من أنعامهم ="سفها"، منهم. يقول: فعلوا ما فعلوا من ذلكَ جهالة منهم بما لهم وعليهم، ونقصَ عقول، وضعفَ أحلام منهم، وقلة فهم بعاجل ضرّه وآجل مكروهه، من عظيم عقاب الله عليه لهم " [4]

- **أغراض دعاة الشرك في الجاهلية :**

ولا يخفى على كل عاقل أن ثمة أغراض مبيتة وراء دفع الناس إلى الإشراك بالله تعالى " والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين:ليردوهم، وليلبسوا عليهم دينهم ليهلكوهم

1 - سورة الأنعام ، آية رقم137.

2 - ابن عاشور محمد الطاهر، نفس المصدر ، ج 8 ، ص 105 .

3- سورة الأنعام ، آية رقم140.

4 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر السابق ، ج 12 ، ص 153.

وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح.. فأما الهلاك فيتمثل إبتداء في قتلهم لأولادهم؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الإجتماعية بجملتها" [1]
وبالجملة هذه هي أبرز الحوادث التاريخية المعتادة على جهة الإعتقاد، و التي يتفق المسلمون على عدها ضلالات ظاهرة ،وهي :" مجموعة التصورات والمزاعم والتقاليد التي كانت تصبغ وجه المجتمع العربي في الجاهلية، والتي يتصدى هذا السياق القرآني الطويل- في سورة مكية للقضاء عليها، وتطهير النفوس والقلوب منها، وإبطالها كذلك في الواقع الإجتماعي."[2]

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص 1219 .
2 - سيد قطب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص1214 .

المطلب الثاني : حوادث إعتقادية محمودة

01- تعظيم البيت و البلد الحرام

و من عجيب المفارقات التي لوحظت في تاريخ العرب أيام الجاهلية أنهم على الرغم مما كانوا عليه من الضلال المبين، و الإنحراف الواضح الخطير في موضوع العقيدة والتوحيد ، إلا أن موقفهم مع بيت الله الحرام والبلد الأمين مختلف، فهو مما يضرب به المثل في التعظيم والإحترام، ؛ حتى نقل الكثير من الكتاب عنهم في السير والتواريخ صورا عديدة ،ومواقف تستحق الذكر، و تبين أنهم كانوا على قدر كبير من التعظيم والإجلال إتجاه البيت العتيق والبلد الحرام.

مظاهر تعظيم البيت الشريف والبلد الحرام

أ- الدخول إلى الكعبة المشرفة حفاة

ومن الصور التي إحتفظت بها الذاكرة التاريخية للعرب أنهم كانوا " يفتحون الكعبة يوم الإثنين والخميس، وكان الحُجاب يجلسون عند الباب، فيرتقي الرجل فإذا كانوا لا يريدون دخوله يُدفع ويُطرح، فربما عطب، وكانوا لا يدخلون الكعبة بحذاء – يعظمون ذلك- ويضعون نعالهم تحت الدرجة، وأول من خلع الخفّ والنعل فلم يدخل بهما الوليد بن المغيرة؛ إعظامًا لها، فجرى ذلك سُنة" [1]

ب- تحريم السكن بساحة الكعبة ومحيطها

و من تعظيمهم للبيت أيضا أنهم: " كانوا يحرمون أن يسكنوا مكة، ويعظمون أن يبنوا بها بيتًا، وكانوا يكونون بها نهارًا فإذا جاء الليل خرجوا إلى الحل، ولا يستحلّون الجناية بمكة، فأذن لهم قصي أن يبنوا في الحرم، وقال لهم: إنكم إن سكنتم حول البيت هابتكم العرب و لم تستحل قتالكم. فقالوا: رأينا تبعٌ لرأيك وأنت سيدنا؛ فابتدأ وبنى دار الندوة، وهي أول دار بُنيت بمكة – والندوة في اللغة الاجتماع- فكانوا لا يعقدون أمرًا من الأمور إلاّ فيها، ولا يدخلها من غير ولد قصي إلاّ من جاوز الأربعين، فسمي قصي مجمعًا لجمعه لقومه."[2]

1- عمر بن فهد نجم الدين ، إتحاف الورى بأخبار أم القرى ت. محمد شلتوت ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، سنة 1988 م ، ج 1 ،ص151-152.

2 - عمر بن فهد نجم الدين ، المصدر السابق ، ج1 ، ص269 .

ج- **تحريم مضاهاة الكعبة الشريفة في البنيان**

ومن صور تعظيمهم للكعبة المشرفة أنهم كانوا يتجنبون البناء المشابه للبيت فكانوا " يبنون بيوتهم مدورة تعظيمًا للكعبة، فأول من بنى بيتًا مربعا حميد بن زهير، فقالت قريش: ربّع حميد بيتا إما حياة وإما موتا."[1]

د- **تحريم الطواف بلباس الحل**

وبالغوا في التعظيم حتى حرموا على الناس الطعام واللباس الذي أتوا فيه من بلداهم الأصلية ، وقالوا لا نقبل أن يطوف الحاج أو المعتمر بلباس الحل في أرض الحرم ،وفي الشهر الحرام، وهم يقصدون موسم الحج في ذي الحجة ، و فرضوا :" على العرب أن لا يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاؤوا حجاجا أو عمارا – ولايطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس [2] ،

فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ...."[3]

ومكث الأمر عندهم على مثل هذه الحالة حتى جاء الإسلام ونهاهم الله عن ذلك بقوله تعالى: (**يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ**)[4]

ومن إجلالهم للبيت العتيق أيضا أن قد قام المكلف بإعادة بناءه قبل البعثة بقليل مناديا :" يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من مكاسبكم إلا طيبا،ولا تدخلوا فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس"[5]

1 – مقالة بعنوان تعظيم-أهل-الجاهلية-للبلد-الحرام – جمعية مراكز الإحياء – مكة المكرمة https://makkah.org.sa/تاريخ الاطلاع، 26 ماي 2021 ، توقيت 18.30.

2 – الحمس: اللباس الخاص بأهل مكة (قريش) .

3- – مهران بيومي ، دراسات تاريخية من القران الكريم في بلاد العرب ، دار النهضة العربية ، بيروت، ط 2 ، سنة 2015 ، ج1،ص 221 .

4 – سورة الأعراف ، آية رقم 31 .

5- مهران بيومي ، المرجع السابق ، ج1، ص225 .

02- تعظيم الأشهر الحرم

لاخلاف بين المسلمين أن الأشهر الحرم هي تلك المذكورة في قول الله تعالى :﴿ **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةًۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ** ﴾ [1]

والمعنى : "إن عدة شهور السنة إثنا عشر شهرًا في كتاب الله، الذي كتبَ فيه كل ما هو كائن في قضائه الذي قضى = ﴿يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم﴾ ، يقول: هذه الشهور الإثنا عشر منها أربعة أشهر حرم كانت الجاهلية تعظمهن، وتحرِّمهن، وتحرِّم القتال فيهن، حتى لو لقي الرجل منهم فيهن قاتل أبيه لم يَهِجْهُ، وهن: رجب مُضر وثلاثة متواليات، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. وبذلك تظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "[2].

و شددت العرب في تعظيم الأشهر الحرم حتى أنهم كانوا إذا " قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: لَا أُكَلِّمُكَ الشُّهُورَ، وَحَلَفَ عَلَى ذَلِكَ فَلَا يُكَلِّمُهُ حَوْلًا، قَالَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ. وَقِيلَ: لَا يُكَلِّمُهُ أَبَدًا. " [3]

المطلب الثالث: حوادث عملية جرت مجرى العادات

الحوادث العملية المذمومة

01- وأد البنات

وأد البنات من أشهر الجرائم التي سودت سجلات تاريخ العرب قبل الإسلام، فقد كانوا يدفنون البنات مباشرة بعد الوضع ، وهو أمر يبعث فعلا على الحسرة و الحيرة والتساؤل ، وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ (9)[4]

فلم ترى هذه البريئة الدنيا ،و لم تعش حتى تحاسب عن ذنب إقترفته بهذه الفظاعة.

1 - سورة التوبة ، آية رقم36 .

2 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر السابق ، ج 14 ، ص 234 .

3 - القرطبي أبو عبد الله ، المصدر السابق ، ج 8 ، ص132.

4 - سورة التكوير ، الآيتان 8- 9.

".فإن قلت:ما حملهم على وأد البنات؟ قلت: الخوف من لحوق العار بهم من أجلهنّ. أو الخوف من الإملاق، كما قال الله تعالى وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ وكانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به، فهو أحق بهنّ. وصعصعة بن ناجية ممن منع الوأد، فبه افتخر الفرزدق في قوله:

ومنّا الّذى منع الوائدات ... فأحيا الوئيد فلم توأد

فإن قلت: فما معنى سؤال الموؤدة عن ذنبها الذي قتلت به، وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ قلت: سؤالها وجوابها تبكيت لقاتلها نحو التبكيت في قوله تعالى لعيسى أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ... إلى قوله ... سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ وقرئ: سألت، أى: خاصمت عن نفسها، وسألت الله أو قاتلها، وإنما قيل قُتِلَتْ بناء على أن الكلام إخبار عنها،" [1]

ومن المؤكد أن تلك النظرة المادية القاصرة للفتاة ،من أنها لا تقدر على تحمل أعباء الحياة، ولا تقوى على حمل سلاح، ولا قتال عدو، هي أكبر البواعث الأساسية على إقتراف مثل هذه الجرائم، إضافة إلى خشيتهم من الفقر الذي يلاحقهم جراء محدودية الدخل المعيشي ، وتوجسهم من تبعات العار، الذي قد يلحق الأسرة ، بل ربما القبيلة كلها في نظرهم .

ولذلك طمأنهم المولى تعالى من أنه هو الضامن لرزق العباد، أبناءا كانوا أم أباءا،وأن ما يقومون به هو عين الضياع والخسران .

غير أنه ما لايمكن تجاهله بآية حال ،أن قضية وأد البنات لم تكن عادة مطردة في جميع قبائل العرب: " كما يجب أن يشيع البعض ، وإلا لأنقرض العرب بالطبع ، أو على الأقل لتناقص أعدادهم بسبب عدم وجود نساء للزواج، بل كانت هذه عادة عند فقراء قبيلة تميم وبعض

1- الزمخشري محمود بن عمرو جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط3 ، 1407 هـ ، ج 4 ،ص 708.

قبيلة بكر بن وائل، وبعض القبائل الأخرى في جنوب الحجاز ،و لم يكن كل أفراد هذه القبائل يفعلون هذه الفعلة"[1].

الفرق بين وأد البنات وقتل الأولاد قربة للشيطان

ولأن جرائم قتل فلذات الأكباد قد إتفقت في الأصل (إزهاق الأرواح بغير حق ومن دون سبب) و افترقت في الغايات ، فقد وجب التفريق بين ما كان بدافع الطقوس الوثنية و القربات إلى الشيطان (قتل الأولاد)،وبين ما كان بنية الفرار من الفقر، وتجنب العار (وأد البنات) ، هذا مع أن بعض علماء الإسلام إعتبرهما قضية واحدة ، و لم يفرق بين جريمة وأخرى لطالما المجني عليه واحدا،يقول القرطبي "سَفَهًا خَوْفَ الْإِمْلَاقِ، وَحَجَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَلَمْ يَخْشَوُا الْإِمْلَاقَ، فَأَبَانَ ذَلِكَ عَنْ تَنَاقُضِ رَأْيِهِمْ. قُلْتُ: إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْعَرَبِ مَنْ يَقْتُلُ وَلَدَهُ خَشْيَةَ الْإِمْلَاقِ، كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَقْتُلُهُ سَفَهًا بِغَيْرِ حُجَّةٍ مِنْهُمْ فِي قَتْلِهِمْ، وَهُمْ رَبِيعَةُ وَمُضَرُ، وَكَانُوا يَقْتُلُونَ بَنَاتِهِمْ لِأَجْلِ الْحَمِيَّةِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، فَأَلْحَقُوا الْبَنَاتِ بِالْبَنَاتِ." [2]

و أيما كانت الأسباب، ومهما تعددت الغايات والدوافع، سواء تعلق الأمر بقضية واحدة، أم بقضيتين مختلفتين، فإن المسلم به أن عرف الجاهلية هو الذي كان وراء الإقدام على هذه الجنايات، وأن شياطين الإنس والجن أوحت إليهم بهذه الجرائم المتمثلة في إعدام الطفل البريء ،يقول سيد قطب : "وظاهر أن هذا وذاك كان يوحي به عرف الجاهلية. العرف الذي وضعه الناس للناس. والشركاء المذكورون هنا هم شياطين الإنس والجن.. من الكهنة

1- صالح محمد ، أبرز العادات السيئة عند العرب ، حصة عبر فيديو على الرابط التالي https://www.youtube.com/watch?v=9A0fMyhqCDA تاريخ الاطلاع 06 جوان 2021 توقيت 14.20 .

2 - القرطبي أبو عبد الله ، المصدر السابق ، ج7 ، ص96.

والسدنة والرؤساء من الإنس، ومن القرناء الموسوسين من الجن، بالتعاون والموالاة فيما بينهم!" [1]

وعن دوافع التزيين يقول : "والنص يصرح بالهدف الكامن وراء التزيين:(ليردوهم، وليلبسوا عليهم دينهم)[2] ليهلكوهم وليجعلوا دينهم عليهم ملتبسا غامضا لا يقفون منه على تصور واضح.. فأما الهلاك فيتمثل ابتداء في قتلهم لأولادهم؛ ويتمثل أخيراً في فساد الحياة الاجتماعية بجملتها" [3]

و يعتقد سيد قطب أن هناك مصالح كانت وراء هذا التزيين على قتل الإنسان بغير حق " وظاهر في هذه التصورات والتصرفات أثر المصلحة للشياطين في هذا الذي يزينونه لأوليائهم. فأما مصلحة شياطين الإنس- من الكهنة والسدنة والرؤساء- فهي متمثلة أولا في الاستيلاء على قلوب الأتباع والأولياء، وتحريكهم على هواهم وفق ما يزينونه لهم من تصورات باطلة وعقائد فاسدة! ومتمثلة ثانيا في المصالح المادية التي تتحقق لهم من وراء هذا التزيين والإستهواء لجماهير الناس؛ وهو ما يعود عليهم مما يقسمه هؤلاء الأغرار المغفلون للآلهة!.. وأما مصلحة شياطين الجن فتتمثل في نجاح الإغواء والوسوسة لبني آدم حتى يفسدوا عليهم حياتهم، ويفسدوا عليهم دينهم، ويقودوهم ذللاً إلى الدمار في الدنيا والنار في الآخرة!"[4]

طلب النفع بمعصية الله نتيجته الخسران

وخرج الأستاذ إبن عاشور فائدة أخرى علاوة على التي ذكرت سالفا : "ذَلِكَ أنَّ هَؤُلاءِ الَّذِينَ قَتَلُوا أوْلادَهم قَدْ طَلَبُوا نَفْعَ أنْفُسِهِمْ بِالتَّخَلُّصِ مِن أضْرارٍ في الدُّنْيا مُحْتَمَلٍ لَحاقُها بِهِمْ مِن جَرّاءِ بَناتِهِمْ، فَوَقَعُوا في أضْرارٍ مُحَقَّقَةٍ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ،"[5]

1- سيد قطب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص1218 .

2 - سورة الأنعام ، آية رقم 137.

3 - سيد قطب ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص1219 .

4- سيد قطب ، المصدر نفسه ، ج3 ، ص 1218 .

5 - ابن عاشور محمد الطاهر ، نفس المصدر، ج 8 ، ص113.

وإذا كان من المتفق عليه أن حفظ النسل من المقاصد الكبرى للشريعة الإسلامية ، وأنه :"نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلى الوالِدَيْنِ يَأْنَسُونَ بِهِ ويَجِدُونَهُ لِكِفايَةِ مُهِمّاتِهِمْ، ونِعْمَةٌ عَلى القَبِيلَةِ تَكْثُرُ وتَعْتَزُّ، وعَلى العالَمِ كُلِّهِ بِكَثْرَةِ مَن يُعَمِّرُهُ وبِما يَنْتَفِعُ بِهِ النّاسُ مِن مَواهِبِ النَّسْلِ وصَنائِعِهِ، ونِعْمَةٌ عَلى النَّسْلِ نَفْسِهِ بِما يَنالُهُ مِن نَعِيمِ الحَياةِ ومَلَذّاتِها." [1]

و لأن عدو الشيء جاهله[2] كما قيل ، فإن المجتمع الجاهلي لم يدرك جيدا نعمة نظام النسل ،وفاته أن يفقه حكمة ذلك، ومن ثم لم يحافظ عليه ، فأقدم على هضم "حَقِّ البِنْتِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لَها وهو حَقُّ الحَياةِ إلى انْقِضاءِ الأجَلِ المُقَدَّرِ لَها، وهو حَقٌّ فِطْرِيٌّ لا يَمْلِكُهُ الأبُ فَهو ظُلْمٌ بَيِّنٌ لِرَجاءِ صَلاحٍ لِغَيْرِ المَظْلُومِ، ولا يُضَرُّ بِأحَدٍ لِيَنْتَفِعَ غَيْرُهُ، فَلَمّا قَتَلَ بَعْضُ العَرَبِ بَناتِهِم بِالوَأْدِ كانُوا قَدْ عَطَّلُوا مَصالِحَ عَظِيمَةً مُحَقَّقَةً، وارْتَكَبُوا بِهِ أضْرارًا حاصِلَةً، مِن حَيْثُ أرادُوا التَّخَلُّصَ مِن أضْرارٍ طَفِيفَةٍ غَيْرِ مُحَقَّقَةِ الوُقُوعِ، فَلا جَرَمَ أنْ كانُوا في فِعْلِهِمْ كالتّاجِرِ الَّذِي أرادَ الرِّبْحَ فَباءَ بِضَياعِ أصْلِ مالِهِ،" [3]

تعليل الحكم بالسفه

وفي تعليل حكم الله تعالى على من قام بوأد البنات بالسفه، يذكر الأستاذ إبن عاشور : " لِأنَّ السَّفَهَ هو خِفَّةُ العَقْلِ واضْطِرابُهُ، وفِعْلُهم ذَلِكَ سَفَهٌ مَحْضٌ؛ أيْ: سَفَهٌ أعْظَمُ مِن إضاعَةِ مَصالِحَ جَمَّةٍ، وارْتِكابِ أضْرارٍ عَظِيمَةٍ وجِنايَةٍ شَنِيعَةٍ، لِأجْلِ التَّخَلُّصِ مِن أضْرارٍ طَفِيفَةٍ قَدْ تَحْصُلُ وقَدْ لا تَحْصُلُ، وتَعْرِيفُ المُسْنَدِ إلَيْهِ بِالمَوْصُولِيَّةِ لِلْإيماءِ إلى أنَّ الصِّلَةَ عِلَّةٌ في الخَبَرِ فَإنَّ خُسْرانَهم مُسَبَّبٌ عَنْ قَتْلِ أوْلادِهِمْ " . [4]

---

1 – ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ،ج8 ، ص 113.

2 – ابن كثير اسماعيل بن عمر، البداية والنهاية ، ج 10 ، ص 189، دار الفكر، بيروت ، 1986 م .

3– ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ،ج 8 ، ص114.

4 – ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج8 ، ص114 .

تعليل الحكم بالضلال

وأما عن سر الحكم عليهم بالضلال فيقول " والضَّلالُ: خَطَأُ الطَّرِيقِ المُوصِّلِ إلى المَقْصُودِ، فَهم رامُوا البُلُوغَ إلى مَصالِحَ دُنْيَوِيَّةٍ، والتَّقَرُّبَ إلى اللَّهِ وإلى شُرَكائِهِمْ، فَوَقَعُوا في المَفاسِدِ العَظِيمَةِ، وأبْعَدَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ، فَلِذَلِكَ كانُوا كَمَن رامَ الوُصُولَ فَسَلَكَ طَرِيقًا آخَرَ. " [1]

02- حمية الجاهلية(العصبية الجاهلية)

معنى الحمية

أصل الكلمة مأخوذ من حمي و أحمى، يقول الراغب الأصفهاني : "عَبَّرَ عَنِ القُوَّةِ الغَضَبِيَّةِ إذا ثارَتْ وكَثُرَتْ بِالحَمِيَّةِ فَقِيلَ: حَمَيْتُ عَلى فُلانٍ أيْ غَضِبْتُ عَلَيْهِ"[2].

حمية حق وحمية باطل

وليست كل حمية مذمومة، وإنما فقط ما أضيف منها للجاهلية، إذ أن من معاني الحمية أيضا" الأنَفَةُ يُقالُ: حَمَيْتُ عَنْ كَذا حَمِيَّةً إذا أنِفْتَ مِنهُ وداخَلَكَ عارٌ مِنهُ"[3]

ومؤدى هذا ، أن من الحمية ماهو محمود ، على النحو الذي يكون من جنس الدفاع عن الحق والتمسك بشرعيته ، والذود عن الأوطان وحبها ومودة أهلها وما إلى ذلك .

والحمية الجاهلية ما كان فيه بطر للحق ، وتعالي عليه ، وماكان من قبيل الولاءات للآراء الفاسدة، وللعصبية المذمومة ، وهذا مايفسره سبب نزول النص القرآني: " حين جعل سُهيل بن عمرو في قلبه الحمية، فامتنع إن يكتب في كتاب المقاضاة الذي كتب بين يدي رسول الله ﷺ والمشركين: بسم الله الرحمن الرحيم، وأن يكتب فيه: محمد رسول الله، وامتنع هو وقومه من دخول رسول الله ﷺ "[4].

---

1 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ،ج 8 ، ص115.

2- الأصفهاني الراغب ، مفردات القرآن ، المصدر السابق ، ص 259 .

3 - الألوسي ، محمود شهاب الدين أبو الثناء ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، ت: علي عبد الباري عطية ، - دار الكتب العلمية - بيروت ،ط1 ، 1415هـــ، ج 13 ، ص269 .

4 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر السابق ، ج 22 ، ص251 .

والحمية الجاهلية أو العصبية من السلوكات التي تعود عليها بعض العرب تلقائيا لشدة تمسكهم بالعرف القبلي السائد، حتى صاروا لا ينظرون إلا بالعين التي تنظر بها القبيلة ، ولايسمعون إلا بأذن العشيرة . وفي ذلك يقول دريد بن الصمة :

وهل أنا إلا من غزيّة إن غوت ... غويت إن ترشد غزيّة أرشد[1]

تاريخ العصبية

ويرجع الباحثون أول ظهور للعصبية المذمومة ، إلى قضية رفض إبليس للإنصياع لأمر الله تعالى :" وقد أشار القرآن الكريم إلى أول ظهور للعصبية ، وكان ذلك عند إبليس – لعنه الله – والذي وضع اللبنة الأولى لها حين رفض الإمتثال لأمر الخالق جل وعلا " [2]

وكانت أمة اليهود أسبق الأمم التي سرى فيها داء الحمية والعصبية قبل أن يدب هذا الداء إلى العرب بقرون ،وهو الذي كان من وراء تحريفهم للتوراة من بعد موسى عليه السلام، " فقد سرت هذه الظاهرة تباعا لنجدها عند اليهود حين حرفوا عمدا كتاب التوراة أبان فترة السبي البابلي بين عامي 538/586 ق.م "[3]

وحمية الجاهلية هي التي تأصلت في قلوب المنافقين وتجسدت في سلوكاتهم وأفعالهم ، وترجمتها ألسنتهم بنعتهم خيرة أهل الأرض يومذاك – المهاجربن بالأذلاء ، وطالبوا بطردهم وإخراجهم من المدينة النبوية ، وإعادتهم إلى موطنهم الأصلي الذي أضطهدوا و أوذوا فيه من قبل، وأخرجوا منه بغير حق ، " **يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ** "[4].

---

1 - دريد بن الصّمّة، من جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن. ويكنى أبا قرّة. أحد الشّجعاء المشهورين، وذوى الرأى فى الجاهليّة. مات مشركا يوم حنين ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ج 2 ص 737 .

2 - ميمون يوسف طعام حفيظة ، مقالة بعنوان العصبية القبلية في الشعر العربي، القديم مجلة أنسنة للبحوث والدراسات ، سنة 2019 ، مجلة إلكترونية ، جامعة زيان عاشور 1، الجلفة ، ص 165 .

3- ميمون يوسف طعام حفيظة ، المرجع السابق .

4- سورة المنافقون ، آية رقم8 .

وهذا على خلاف الأنصار الذين أشربوا الإيمان في قلوبهم **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ**)[1]

وقد طهر الله قلوب الصحابة الكرام من الحمية الجاهلية بعد أن خالط الإيمان قلوبهم ، كما جاء مصرحا به في خطبة النبي يوم فتح مكة :

"يامعشر قريش قد أذهب الله عنكم حمية الجاهلية "[2]

حوادث عملية محمودة

الظاهر أن القرآن الكريم لم يول أهمية كبيرة لما كان في العرب أيام الجاهلية من صفات خلقية حسنة ،على غرار كثرة الجود والكرم ،والنخوة ، والأنفة والبطولة وما إلى ذلك..

و لعل ذلك راجع إلى إقتران هذه الأفعال بالشرك بالله تعالى، وهوأعظم ما يرتكبه المخلوق من جرائم في الكون، وأشد الجرائم المحبطة للأعمال، " وَقَدِمْنَا إِلَيٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً " (23) [3].

ومعلوم أن الإيمان والتوحيد رأسا كل خير وأساسه، وإذا هدم الأساس لم يبق للفرع معنى أو ثمرة، وهذا المنهج هو الملحوظ في خط الرسالة الأسمى وهدفها الأعلى ، إذ أن من غايات القرآن الكريم التطهير والتزكية و التخلي عن كل رذيلة والترفع عن أخلاق الجاهلية، والترقية بالنفس البشرية إلى القيم الإنسانية الفاضلة.

وأما ما كان من أفعال الخير والفضيلة التي دواوين الشعر والأدب الجاهلي، فمعلوم أن ذلك لا يغني من الحق شيئا لطالما هدم أساس البنيان، وتزعزع منه الركن الركين (التوحيد) وانعدم الإيمان.

---

1 - سورة الحشر ، آية رقم 9.

2 - الترمذي أبو عيسى ، سنن الترمذي حديث رقم3955 من حديث أبي هريرة بلفظ عبية الجاهلية وقال عنه حسن غريب وروي من طرق أخرى بلفظ نخوة الجاهلية .

3- سورة الفرقان ، آية رقم 23 .

فهذا المهلهل بن ربيعة الملقب زير سالم[1] يرثي أخاه كليبا، ويعدد مناقبه الكثيرة عندما قتل في حرب البسوس بين بكر و تغلب :

على أن ليس عدلا من كليب ....إذا طرد اليتيم عن الجزول

ومعلوم إن مثل هذه الأخلاق لم يتفرد بها كليبا دون غيره ،و لم تكن هذه السجايا حكرا عليه وحده ، وأقل مايمكن القول عنها أنه إقتبسها من بيئته التي ترعرع بها .

وقدمت سفانة[2] إبنة حاتم الطائي الشهير ، مضرب المثل في الجود والكرم ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسأله عن مصير أبيها ، وقد كانت خصاله معلومة لدى الصحابة الكرام ولدى العرب عامة يقول ابن كثير :

" وقد ذكرنا ترجمة حاتم طيء أيام الجاهلية عند ذكرنا من مات من أعيان المشهورين فيها وما كان يسديه حاتم إلى الناس من المكارم والإحسان ، إلا أن نفع ذلك في الآخرة أي : (مشروط) بالإيمان ، وهو ممن لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين[3] ." [4]

" فكرمهم لم يقف عند إعطاء جائع مايسد رمقه بل وصل حد التضحية بأعز الأشياء وأثمنها لتوفير الرفاه ق كثيرا حدود الحاجة الضرورية ، فافتخروا بتقديمهم له أشهى مايملكون ، ويكون ذلك بذبح الناقة العشار ، وتلقوا ضيفهم بالببشر والطلاقة ،

1- المهلهل بن ربيعة هو عدي بن ربيعة بن الحارث بن مرة بن هبيرة أبو ليلى من أبطال شعراء العرب الفرسان. من تغلبي (توفي هـــ/531 م). خبره في كتاب الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ،ج1 ، ص 289.

2- سفانة بنت *حاتم الطائي* هي صحابية جليلة، من أجود نساء العرب، كان أبوها *حاتم الطائي* شاعر جاهلي اشتهر بالكرم والجود، حتى أصبح اسمه مَضرب الأمثال فيقال أجَودُ من حاتم ، من أجود نساء العرب ورثت الكرم من أبيها حاتم أطلق سراحها النبي صلى الله عليه وسلم لإسلامها وأكرمها بعد غزوة قبيلة قومها طيء قرب المدينة .
(سير *أعلام النبلاء*) ، ج 12 ، ص590.

3- حديث سفانة رواه أيضا إبن عساكر في تاريخه وفي سنده ضرار وهو متروك .

وروى أحمد في مسنده عن عدي بن حاتم قال: قلت لرسول الله ﷺ: إن أبي كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل فهل له في ذلك؟ يعني من أجر. قال » :إن أباك طلب شيئا فأصابه وقال » :إن أباك أراد أمرا فأدركه .« يعني الذكر.

4- : ابن كثير إسماعيل بن عمر / البداية والنهاية: دار الفكر - بيروت - 1986 م - ، ج 5، ص68.

وتبسطوا له في الحديث، وقلوا تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند المؤاكلة ، قال عروة بن الورد :

سلي الجائع الغر ثان يا أم منذر.....إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

هل أبسط وجهي أنه أول القرى ......وأبذل معروفي له دون تنكري[1]

والحاصل أنه ليس هناك مصلحة ولافائدة ترجى من خصال الخير إذا اقترنت بالشرك، وقد خاطب الله تعالى نبيه وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)[2]

حوادث عملية معهودة ذات طابع إجتماعي واقتصادي

- رحلة الشتاء والصيف

في خضم الحديث عن أهم الحوادث التاريخية ذات الطابع العملي في شقه الإقتصادي والإجتماعي، التي أشارت إليها نصوص القرآن الكريم، تبرز إلى الواجهة قضية إيلاف قريش ، المتمثلة أساسا في عقد الأمان ،أو عهد الحماية، الذي ضمن أمن وسلامة رحلات قريش الإقتصادية والتجارية كما جاء ذلك صريحا ،في السورة التي سميت بأعظم حي من أحياء العرب في الجاهلية والإسلام (قريش).

وقد ورد مصطلح الإيلاف في أشعار الجاهلية بالمعنى المراد في السورة ذاته، منها ماجاء على لسان مطرود بن كعب الخزاعي [3] في قصيدته التي رثى بها عبد المطلب و بني عبد مناف

"يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوِّلُ رَحْلَهُ ... هَلَّا سَأَلْتَ عَنْ آلِ عَبْدِ مَنَافِ

هَبَلَتْكَ أُمُّكَ لَوْ حَلَلْتَ بِدَارِهِمْ ... ضَمِنُوكَ مِنْ جُرْمٍ وَمِنْ إِقْرَافِ

الْخَالِطِينَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ ...... حَتَّى يَعُودَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي

---

1 - شكران خربطلي ، سطور منسية في تاريخ الحجاز- الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل ظهور الإسلام ، مؤسسة رسلان للطباعة والنشر، دمشق، 2011 ، ص127 .

2- سورة الزمر ، آية رقم 62.

3 - مطرود بن كعب الخزاعي ، مطرود بن كعب الخزاعي: شاعر جاهلي فحل، لجأ إلى عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف، لجناية كانت منه فحماه وأحسن إليه، فأكثر مدحه ومدح أهله، الترجمة منقولة عن موقع الديوان العربي

الْمُنْعِمِينَ إِذَا النُّجُومُ تَغَيَّرَتْ ... وَالظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ الْإِيلَافِ
وَالْمُطْعِمِينَ إِذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَتْ ... حَتَّى تَغِيبَ الشَّمْسُ فِي الرَّجَّافِ
إِمَّا هَلَكْتَ أَبَا الْفِعَالِ فَمَا جَرَى ... مِنْ فَوْقِ مِثْلِكَ عَقْدُ ذَاتِ نِطَافِ
إِلَّا أَبِيكَ أَخِي الْمَكَارِمِ وَحْدَهُ ... وَالْفَيْضِ مُطَّلِبٍ أَبِي الْأَضْيَافِ " [1]

ولكي تتضح صورة هذا العهد التاريخي الذي تم بين قريش وبين غيرها من الأمم، والذي وفر لهم حرية وسلامة سير القوافل التجارية ذهابا وإيابا باتجاه مدن وأسواق كل من الشام والعراق واليمن ، سعيا لضمان العيش وأملا في تحقيق الرخاء و الإنعاش الإقتصادي ،كان لابد من الوقوف على الأسباب والظروف التي إضطرت أل عبد مناف وهم سادة قريش وكبرائهم بالمبادرة إلى هذا الإتفاق مع ملوك الأعاجم من الفرس وبيزنطة والحبشة.

ومعلوم أن هذه الدول كانت تمثل كبرى القوى السياسية والإقتصادية العالمية حينذاك ، ثم النظر في طبيعة العقد ومألاته و أهدافه ومراميه ، وصولا في الأخير إلى الثمرات التي أنتجها حلف قريش والمحققة في قوله تعالى : **ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ**" [2]

وكانت الجزيرة العربية : " تنقسم سياسياً إلى ثلاثة أقسام، مملكة حِميَر[3] اليمنية في الجنوب، تقاسي محاولات التغلغل الحبشي الذي تحول فيما بعد إلى احتلال كامل، وفي الشمال مملكتي

1- ابن هشام عبد الملك بن أيوب السيرة النبوية ، ت : مصطفى السقا ، مكتبة مصطفى الحلبي، مصر، ط2، 1955 م ، والأبيات رويت بصيغة أخرى في تاريخ اليعقوبي وفي مناسبة أخرى أيضا ، ج1 ، ص 178 .

2 - سورة قريش ، آية رقم 4- 5 .

3 - حمير :بكسر الحاء. اقدم الشعوب القحطانية بإقليم مأرب نسبة الى جدهم الملك "حمير بن سبا، واسم حمير زيد، وكان أول ملك لبس التاج من الذهب مفصصاً بالياقوت الأحمر." تاريخ اليعقوبي ، ج1 ، ص 75.

الحيرة[1] في العراق التابع للفُرس والغساسنة في الشام التابع لبيزنطة[2].

وبين الجنوب والشمال مساحة تسكنها قبائل تأنف من الخضوع لنظام ملكي أو دولة خارجية مثل قريش في مكة والأوس والخزرج بالمدينة وغيرها، أو تجمعات للأعراب يعيشون في ضيق حال مما دفع كثيرا منهم لإحتراف حياة اللصوصية وقطع الطرق على القوافل." [3]

لقد إتسمت طبيعة المجتمع القرشي بالشعور بالإباء والأنفة ، كونهم من كنانة الذين إصطفاهم الله تعالى من أل عدنان ومن العرب قاطبة "و كانوا يرون لأنفسهم ميزة لا يتطاول عليها غيرهم من العرب ، لأنها تتصل بكرامة البيت الحرام وحرمته ، فهم أهله وأولياؤه ، وهم سدنته والقائمون بالأمر فيه ، يسقون الحجيج ويطعمونهم ، ويوفرون لهم الأمن والراحة " [4]

كل ذلك جعل منهم مجتمعا يأبى الرضوخ للسيطرة الأجنبية، التي قد تِؤدي بهم حتما في النهاية إلى الإنضواء تحت إحتلال واحدة من إمبراطوريات العالم الثلاث سيما وقد لاحظوا ماجرى لبني عمومتهم في الشام والعراق واليمن ، وكيف أل أمرهم، وقد وقعوا تحت وطأة إحتلال الدول الثلاث فارس وبيزنطة والحبشة.

و مما عزز من شعورهم بالإباء أيضا، نظرة الشعوب والقبائل الأخرى إليهم ، نظرة الإجلال والمهابة يقول القرطبي "وَذَلِكَ أَنَّ قُرَيْشًا كَانَتْ تَخْرُجُ فِي تِجَارَتِهَا، فَلَا يُغَارُ عَلَيْهَا وَلَا تُقْرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ. يَقُولُونَ هُمْ أَهْلُ بَيْتِ الله عز وجل،" [5]

---

1 – الحيرة : بالكسر ثم السكون، وراء :مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة (العراق) على موضع يقال له النّجف .... انت مسكن ملوك العرب في الجاهلية من زمن نصر ثم من لخم النعمان وآبائه ياقوت الحموي شهاب الدين ، معجم البلدان ، دار صادر، بيروت ، ط2 ، 1995 م ، ج 2، ص368 .

2 – الغساسنة : عرب عرفوا بـــ"آل غسان"، وبـــ"آل جفنة "وبـــ"الغساسنة "وقد استمر ملكهم إلى الإسلام. (قبل الاسلام زمن إحتلال بيزنطة)فلما فتح المسلمون بلاد الشأم، زالت حكومتهم، وذهب سلطانهم كما ذهب ملك" آل لخم "منافسوهم في العراق" جواد علي / المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج6 ، ص77 .

3 – فكري وليد ، مجلة ،رصيف 22 ، مقالة بعنوان :إيلاف–قريش،–الاتفاقية التي–غيّرت–خريطة التاريخ وجزيرة العرب ، https://raseef22.net/article/117445- – 5 جوان2021 ، 6.17 .

4 – مهران بيومي ، المرجع السابق ، ج1، ص 219 .

5 – القرطبي أبو عبد الله ، المصدر السابق ، ج20 ، ص200 .

ويذكر أصحاب السير والتواريخ أنه أصاب مكة سنين وقحط حتى " كانُوا يَعْتَرِيهِمْ خَصاصَةٌ، فَإذا لَمْ يَجِدْ أهْلُ بَيْتٍ طَعامًا لِقُوتِهِمْ حَمَلَ رَبُّ البَيْتِ عِيالَهُ إلى مَوْضِعٍ مَعْرُوفٍ فَضَرَبَ عَلَيْهِمْ خِباءً وبَقُوا فِيهِ حَتّى يَمُوتُوا جُوعًا، ويُسَمّى ذَلِكَ الِاعْتِفارَ" [1]

كان هذا سببا كافيا ليجعل هشام بن عبد مناف يفكر مليا في إبرام إتفاقية مع قياصرة الروم علها تكون سببا في حلحة الأزمة الإقتصادية التي أحاطت بأهل مكة ، و إعادة بعث النشاط الإقتصادي وتفعيل وتيرته من جديد.

وهكذا قرر هاشم في الأخير التوجه نحو شمال الجزيرة، قاصدا قيصر بيزنطة نفسه ، وكان هاشم حكيما شهما ذا بصيرة تامة بأسواق بصرى وغزة والشام والعراق ، وطرقهما بحكم الضرب فيها سنين طويلة ،وجولانه بربوعها وأقاليمها .

وتذكر بعض الروايات أن هاشما كلما دخل سوقا من أسواق الشام " يذبح كل يوم ذبيحة ويصنع طعاماً لكل القافلة، وهو أمر ملفت للنظر، حتى بلغ صنيعه قيصر الروم الذي طلب إحضاره إليه ولقاءه." [2]

ولما دخل عليه بادره هاشم بالقول: " أيُّها الملك، إن قومي تجَار العرب، فإن رأيتَ أن تكتبَ لي كِتاباً تُؤمِّن تجارتَهم فَيقْدَموا عليك بما يُستَطرف مِن أدم الحِجاز وثيابه فتُباع عِندكم فهو أرخص عليكم.!" [3]

فاستجاب ملك بيزنطة لطلب هاشم وكتب له " كتاب آمان لِمَن يَقْدَم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلّما مرَّ بحيٍّ مِنَ العَرَب بطريقِ الشّام؛ أخَذَ من أشرافهم إيلافاً، " [4]

---

1 - إبن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ،ج 30 ، ص 558 .

2 - فكري وليد ، المرجع السابق .

3 - فكري وليد، نفس المرجع ، وقد أورد هذه القصة أيضا في لمفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي ، -دار الساقي ، ط 4 ، 2001م ، ج7 ، ص 67.

4- فكري وليد ، نفس المرجع .

ومما وصل إلينا من بنود المعاهدة (الإيلاف) :"على أَن قريشاً تحمل إليهم بضائع فيكْفُونهم حُمْلانها ويؤدُّون إليهم رؤوسَ أموالهم وربْحَهم "[1]

ولما عاد هاشم إلى قومه ودخل ،مكة فرح قومه به وبادر هو نفسه بالشروع بتنفيذ الإتفاق، فكان أول من خرج في قافلة عظيمة "يُجَوِّزهم يُوفِّيهم إيلافهم الذي أُخِذَ لهم من العَرَب حتى أورَدهم الشَّام وأحلَّهم قُراها، ومات في ذلك السِّفر بغزَّة." [2]

إتساع رقعة الإيلاف

وما إن بدت ثمرات مبادرة هاشم تأتي أكلها ، حتى سارع إخوته الثلاث إلى السير على أثره ، والإقتداء به ، فأبرم كل واحد منهم عقدا مع بقية الملوك فأخذ :"عَبْدُ شَمْسٍ مِن نَجاشِيِّ الحَبَشَةِ وأخَذَ الْمُطَّلِبُ مِن مَلِكِ اليَمَنِ، وأخَذَ نَوْفَلٌ مِن كِسْرى مَلِكِ فارِسَ، فَكانُوا يَجْعَلُونَ جُعْلًا لِرُؤَساءِ القَبائِلِ وساداتِ العَشائِرِ يُسَمّى الإيلافَ أيْضًا، يُعْطُونَهم شَيْئًا مِنَ الرِّبْحِ ويَحْمِلُونَ إلَيْهِمْ مَتاعًا ويَسُوقُونَ إلَيْهِمْ إبِلًا مَعَ إبِلِهِمْ لِيَكْفُوهم مَئُونَةَ الأسْفارِ وهم يَكْفُونَ قُرَيْشًا دَفْعَ الأعْداءِ، فاجْتَمَعَ لَهم بِذَلِكَ أمْنُ الطَّرِيقِ كُلِّهِ إلى اليَمَنِ وإلى الشّامِ، وكانُوا يُسَمَّوْنَ الْمُجِيرِينَ " [3]

ومع مر الأيام ، تطور الإيلاف تطورا ملحوظا، وقفز " قفزة واسعة، إذ أنه بدأ كمشروع بين طرفين هدفه خدمة قبيلة واحدة في بلدة واحدة، ثم اتسع ليمثل شبكة تجارية واسعة ونشاطاً إنسانياً كبيراً تداخَل مع الاقتصاد والسياسة والحياة الإجتماعية والثقافية بشكل عميق ومؤثّر. فمجرد تتبع مختلف أوجه حياة العربي قبل الإيلاف ومقارنتها بها بعده يجعلنا

1- الأفغاني سعيد ،أسواق العرب في الجاهلية والإسلام دار الفكر ، بيروت ، ص 156.

2- فكري وليد ، نفس المصدر .

3- ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج30 ، ص589 .

4 -فكري وليد ، المرجع السابق .

نقف على الأثر العظيم لهذا النظام الذي يمكن أن نصفه بالمبتكر بمقاييس عصره، والذي ساعد بشبكة التواصل التي شكلها، في انتشار ثقافة مكّة إلى كامل المنطقة."[1]

وتذكر الروايات أن القوافل التجارية كانت تتراوح أحيانا "من 1500 إلى 2500 بعير، تجوب العراق والشام واليمن والجزيرة محملة بالسلع الداخلية لجزيرة العرب كالأصواف والثياب والأسلحة والجلود، أو تلك المستوردة من خارجها كالعطور والبخور من الهند والمنسوجات الكتانية من مصر والخمور الشامية الشهيرة، وغيرها. " [2]

ثمرات الإيلاف :

وانتهى الإيلاف الذي تم بين قريش و الأطراف الدولية الفاعلة آنذاك ، إلى الإتفاق على تنظيم رحلتين عظيمتين شهيرتين ، تنطلق الأولى خلال فصل الشتاء بإتجاه اليمن مرورا بمختلف قبائل حمير وصولا إلى تخوم الحبشة[3] بالقرن الإفريقي الشرقي، وتنطلق الثانية بإتجاه الحيرة في العراق ، مرورا بقبائل المناذرة[4] التي خضعت للإحتلال الفارسي، وباتجاه الشام مرورا بقبائل الغساسنة المحتلة من طرف روم بيزنطة وصولا إلى مدينة بصرى [5] ، على أن تمنع القبائل العربية من الغارات على قوافل قريش ، وفي المقابل تفتح مكة أسواقها للبضائع الدولية .

من المصادر التي تطرقت للموضوع أيضا: تاريخ العرب قبل الإسلام، للدكتور محمد سهيل طقوش؛ جزيرة العرب قبل الإسلام، للدكتور برهان الدين دلو؛ تاريخ قريش وأطلس تاريخ الإسلام، للدكتور حسين مؤنس .

2- فكري وليد ، المرجع السابق .

3 – الحبشة: ثالث الإمبراطوريات التاريخية العالمية بعد كل من الفرس وبيزنطة وقد كانت بالقرن الشرقي الافريقي

4 – المناذرة: "المناذرة ملوك الحيرة والعراق" قبل الإسلام من قبيلة لخم اليمنية ، الزركلي خير الدين ، الأعلام ، ج7 ص295 .

5- بصرى الشام : "من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران، مشهورة عند العرب قديما وحديثا، ذكرها كثير في أشعارهم"ياقوت الحموي "، معجم البلدان ، ج 1 ، ص441 .

"وهاتانِ الرِّحْلَتانِ هُما رِحْلَةُ تِجارَةٍ ومِيرَةٍ كانَتْ قُرَيْشٌ تُجَهِّزُهُما في هَذَيْنِ الفَصْلَيْنِ مِنَ السَّنَةِ إحْداهُما في الشِّتاءِ إلى بِلادِ الحَبَشَةِ، ثُمَّ اليَمَنِ يَبْلُغُونَ بِها بِلادَ حِمْيَرَ، والأُخْرى في الصَّيْفِ إلى الشّامِ يَبْلُغُونَ بِها مَدِينَةَ بُصْرى مِن بِلادِ الشّامِ. " [1]

تبوأت مكة المكرمة بعد هذا المكسب التاريخي الهام ، مركزا إقتصاديا مرموقا علاوة على مركزها الديني لعالمي وأضحت مدينة تجارية بامتياز ، ومقصدا لمختلف القوافل الدولية التجارية ، فجمع الله لها بين المرتبتين الدينية و الدنيوية ، وتحقق لها من دعوة الخليل بالأمن والثمرات ما لم يتحقق لغيرها ، فأمها من كل حدب التجار والمستثمرون ، وصارت :" سُفُنِ الحَبَشَةِ في البَحْرِ إلى جَدَّةَ تَحْمِلُ الطَّعامَ لِيَبِيعُوهُ هُناكَ، فَكانَتْ قُرَيْشٌ يَخْرُجُونَ إلى جَدَّةَ بِالإبِلِ والحُمُرِ فَيَشْتَرُونَ الطَّعامَ عَلى مَسِيرَةِ لَيْلَتَيْنِ، وكانَ أهْلُ تَبالَةَ وجُرَشَ مِن بِلادِ اليَمَنِ المُخْصِبَةِ يَحْمِلُونَ الطَّعامَ في مَكَّةَ، فَكانُوا في سِعَةٍ مِنَ العَيْشِ بِوَفْرِ الطَّعامِ في بِلادِهِمْ كَذَلِكَ يُسِّرَ لَهم إقامَةُ الأسْواقِ حَوْلَ مَكَّةَ في أشْهُرِ الحَجِّ وهي سُوقُ مَجَنَّةَ، وسُوقُ ذِي المَجازِ، وسُوقُ عُكاظٍ، فَتَأْتِيهِمْ فِيها الأرْزاقُ ويَتَّسِعُ العَيْشُ، وإشارَةٌ إلى ما أُلْقِيَ في نُفُوسِ العَرَبِ مِن حُرْمَةِ مَكَّةَ وأهْلِها فَلا يُرِيدُهم أحَدٌ بِتَخْوِيفٍ، وتِلْكَ دَعْوَةُ إبْراهِيمَ – عَلَيْهِ السَّلامُ – إذْ قالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذا بَلَدًا آمِنًا وارْزُقْ أهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ﴾[2]]فَلَمْ يَتَخَلَّفْ ذَلِكَ عَنْهم إلّا حِينَ دَعا عَلَيْهِمُ النَّبِيءُ بِدَعْوَتِهِ»[3] :اللَّهُمَّ اجْعَلْها عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِينِ يُوسُفَ فَأصابَتْهم مَجاعَةٌ وقَحْطٌ سَبْعَ سِنِينَ وذَلِكَ أوَّلُ الهِجْرَةِ." [4]

وانتعشت بفضل ذلك الحياة الإقتصادية من جديد، وساد الأمن ربوع أم القرى وطرقها، وعم الرخاء ، روى "سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ قَالَ:

1- ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج 30 ، ص558 .

2 - سورة البقرة ، آية رقم 126.

3 - الحديث رواه النسائي عن أبي هريرة برقم 1072 وصححه.

2 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ، ج 30 ، ص561.

نِعْمَتِي عَلَى قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ. قَالَ: كَانُوا يَشْتُونَ بِمَكَّةَ، وَيَصِيفُونَ بِالطَّائِفِ" [1]

كان هذا الأمر واحدا من الأسباب التي جلبت لأهل مكة أنظار الحاسدين من ذوي الأطماع الإقتصادية الإستعمارية ، لاسيما ملوك الحبشة الذين حدثتهم أنفسهم سوءا بها، وساقهم فرط الغرور إلى الإستخفاف بالبلد الأمين ، وكان أول الملوك الذين دفعوا ثمن غرورهم المفرط أبرهة بن الصباح الحبشي النائب العام للنجاشي على اليمن، الذي هم بمهاجمة البيت الشريف ، تمهيدا لإحتلال مكة المكرمة، وإلحاقها بمستعمراته السابقة من مدن اليمن ،وصرف الحج من مكة إلى كنيسة صنعاء، فقاده سوء الرأي و التدبير إلى سوء العاقبة ،و قدره المشئوم ، وكانت نهايته المخزية بوادي محسر عند مشارف مكة المكرمة ، بين منى ومزدلفة على الهيئة الموصوفة في القرآن الكريم :" فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [2]، كان ذلك بعد أن ذكره عبد المطلب[3] بالعهد الذي أقامه معه ، وبعد أن حذره من مغبة انتهاك حرمة البيت وأن:" للبيت رب يحميه "[4] ، فلم يكترث وتمادى في غيه وفي نقضه للإيلاف.[5]

"وسارعت بعض القبائل إلى طلب دخول الإيلاف أو الاستفادة منه حتى وإن لم تكن واقعة على طرق التجارة المعتادة، طمعاً منها في الربح وكذلك للاستفادة من حماية قوافلها خلال مرورها بمناطق "الإيلاف"، ففتحت بذلك طرقاً وأسواقاً جديدة. وارتفع في هذه الظروف نفوذ القرشيون إلى حد أنه يقال أنّ المسافر على رأس قافلة كان يكفي أن يقول أنه من "أهل

---

1 - القرطبي أبو عبد الله ، المصدر السابق ، ج20 ، ص201 .

2 - سورة الفيل ، آية رقم 5.

3 - عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ولد بالمدينة المنورة لما ترك أمه سلمى عند أخواله بني النجار وهي حامل به ، وذهب هاشم للتجارة في أسواق فلسطين فقدر له أن يتوفى بها ويدفن في غزة.

4- الخبر أورده إبن هشام في السيرة النبوية إِنِّي أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ، وَإِنَّ لِلْبَيْتِ رَبًّا سَيَمْنَعُهُ،و أشار إليه ابن كثير في تفسير سورة الفيل ، ج1 ، ص 50 .

5- إحتلال الحبشة لليمن كان بتأليب وتحريض روم بيزنطة إنتقاما لقضية محرقة المسيحيين الموحدين أصحاب الأخدود التي كانت بإشراف أحد يهود اليمن. والتي جرت وقائعها في مدينة نجران ، سنة 523م

الحرم" أو أن يضع قلادة بها قطعة من شجر الحرم ليُعصَم من أية مضايقات وهو في طريقه."[1]

وقضى المولى تعالى بحكمته وعزته، أن البلد الذي به بيته الشريف سيظل أمنا مهما همت به الأعداء،ومهما عدت به العوادي ، وأن يبقى الإيلاف الذي مكن قريشا منه سببا لصرف الجوع والخوف عن أهل مكة.

وللإرتباط الوثيق بين معاني السورتين، (قريش والفيل)، خيل لبعضهم أنهما سورة واحدة . " قِيلَ: إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مُتَّصِلَةٌ بِالَّتِي قَبْلَهَا فِي الْمَعْنَى. يَقُولُ: أَهْلَكْتُ أَصْحَابَ الْفِيلِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ، أَيْ لِتَأْتَلِفَ، أَوْ لِتَتَّفِقَ قُرَيْشٌ، أَوْ لِكَيْ تَأْمَنَ قُرَيْشٌ فَتُؤَلِّفُ رِحْلَتَيْهَا. وَمِمَّنْ عَدَّ السُّورَتَيْنِ وَاحِدَةً أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَلَا فَصْلَ بَيْنَهُمَا فِي مُصْحَفِهِ. وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كَانَ لَنَا إِمَامٌ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا، وَيَقْرَؤُهُمَا مَعًا. وَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيُّ[2]: "صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ خَلْفَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقرأ في الأولى:(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)[3] وفي الثانية ﴿أَلم تر كيف﴾[4] و ﴿لإيلاف قريش﴾ [5]

وَقالَ الْفَرَّاءُ[6] (هَذِهِ السُّورَةُ مُتَّصِلَةٌ بِالسُّورَةِ الْأُولَى، لِأَنَّهُ ذَكَّرَ أَهْلَ مَكَّةَ عَظِيمَ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ فِيمَا فَعَلَ بِالْحَبَشَةِثُمَّ قَالَ: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) أَيْ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ نِعْمَةً مِنَّا عَلَى قُرَيْشٍ.' [1]

---

1 – فكري وليد ، المرجع السابق.

2 – عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ الْأَوْدِيُّ وصفه الذهبي : ، الإمام الحجة أبو عبد الله ، أدرك الجاهلية ، وأسلم في الأيام النبوية وقدم الشام مع معاذبن جبل ، ثم سكن الكوفة. حدث عن عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، ومعاذ ، وأبي هريرة ، وأبي أيوب الأنصاري ، وطائفة الذهبي شمس الدين ، سير أعلام النبلاء ، ج 4 ، ص 158.

3- سورة التين ، آية رقم 1.

4 – سورة الفيل ، آية رقم 1.

5 – سورة قُرَيْشٍ ، آية رقم 1.

6 – الفراء : من أعلام اللغة والقراءات وعلوم القرأن نعته الذهبي ب :العلامة ، صاحب التصانيف أبو زكريا ، يحيى يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسدي مولاهم الكوفي النحوي ، صاحب الكسائي ، مات الفراء بطريق الحج سنة سبع ومائتين وله ثلاث وستون سنة –رحمه الله ، سير أعلام النبلاء ،ج 9 ، ص 291 .

وتعاظم شأن قريش ، "فَتَيَسَّرَتْ لَهُمُ الأسْفارُ في بِلادِ العَرَبِ مِن جَنُوبِها إلى شَمالِها، ولاذَ بِهِمْ أصْحابُ الحاجاتِ يُسافِرُونَ مَعَهم، وأصْحابُ التِّجاراتِ يُحَمِّلُونَهم سِلَعَهم، وصارَتْ مَكَّةُ وسَطًا تُجْلَبُ إلَيْها السِّلَعُ مِن جَمِيعِ البِلادِ العَرَبِيَّةِ فَتُوَزَّعُ إلى طالِبِيها في بَقِيَّةِ البِلادِ، فاسْتَغْنى أهْلُ مَكَّةَ بِالتِّجارَةِ، إذْ لَمْ يَكُونُوا أهْلَ زَرْعٍ ولا ضَرْعٍ، إذْ كانُوا بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ وكانُوا يَجْلِبُونَ أقْواتَهم فَيَجْلِبُونَ مِن بِلادِ اليَمَنِ الحُبُوبَ مِن بُرٍّ وشَعِيرٍ وذُرَةٍ وزَبِيبٍ وأدِيمٍ وثِيابٍ والسُّيُوفَ اليَمانِيَّةَ، ومِن بِلادِ الشّامِ الحُبُوبَ والتَّمْرَ والزَّيْتَ والزَّبِيبَ والثِّيابَ والسُّيُوفَ المَشْرَفِيَّةَ،...."[2]

ولتأكيد هذه النعم ودوامها على قريش ، بل ولتعم بعد ذلك أصقاع العالم برمته ، شهدت هذه السنة (عام الفيل) التي قضى فيها الناقضون للإيلاف حتفهم ، ميلاد أفضل الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم[3] ،في ملمح فريد متميز ،يوحي بأن الله تعالى أذن للعالم أن يتغير بتحطم قوى الشر والظلم والطغيان ،لتحل محلها دعوة الخير والسلم والأمان.

تعليل الأمر بعبادة رب البيت :

و في تعليل قوله تعالى : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذا البَيْتِ﴾ [4] يقول الأستاذ ابن عاشور: " فَذَلِكَ وجْهُ تَعْلِيلِ الأمْرِ بِتَوْحِيدِهِمُ اللَّهَ بِخُصُوصِ نِعْمَةِ هَذا الإيلافِ مَعَ أنَّ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ نِعَمًا كَثِيرَةً؛ لِأنَّ هَذا الإيلافَ كانَ سَبَبًا جامِعًا لِأهَمِّ النِّعَمِ الَّتِي بِها قِوامُ بَقائِهِمْ وأُوثِرَ إضافَةُ (رَبَّ) إلى ﴿هَذا البَيْتِ﴾[5] دُونَ أنْ يُقالَ: رَبُّهم لِلْإيماءِ إلى أنَّ البَيْتَ هو أصْلُ نِعْمَةِ الإيلافِ بِأنْ أمَرَ إبْراهِيمَ بِبِناءِ البَيْتِ الحَرامِ، فَكانَ سَبَبًا لِرِفْعَةِ شَأْنِهِمْ بَيْنَ العَرَبِ." [6]

---

1 – القرطبي أبو عبد الله ، المصدر السابق ، ج 20 ، ص200 .

2- ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج 30 ، ص560 .

3- سيرة ابن هشام نقلا عن إبن اسحاق من رواية قيس ابن مخرمة ، ج1 ، ص158.

4- سورة قريش ، آية رقم 3.

5- لما كان رد قريش على لسان عبد المطلب - شريف مكة آنذاك – على أبرهة بأن : "للبيت رب يحميه "، وقد صدق ظنهم في ذلك فقد حمى الله بيته الشريف- كان رد القرآن الكريم "عليهم فليعبدوا رب هذا البيت" .

6- إبن عاشور محمد الطاهر، المصدر نفسه ،ج 30 ، ص560 .

المبحث الأول : أهم المناهج التي إعتمدها القرآن الكريم في عرض الحوادث التاريخية :

وبنظرة تأملية تحليلية لما تقدم من نماذج للحوادث التاريخية، والأساليب التي تم عرضها بها في القرآن الكريم، يمكن القول أنها كانت في الغالب تدور بين منهجين : أحدهما وصفي و الأخر تاريخي.

غير أن هذا لا ينفي وجود منهج أخر، سلكه القرآن الكريم في عرض الحوادث التاريخية عند العرب على غرار منهج الإستدراك .

والمقصود أن المولى تعالى قد إستدرك على العرب عن طريق التصويب والتوجيه لبعض ما إعتادوه مثلما جاء في باب المناسك

" فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[1]

وذلك بعدما كانوا يجلسون في مكة أو في منى بعد الفراغ من المناسك فيذكرون خصال الآباء والأجداد وثرواتهم والبطولات التي خاضوها.." حث على الخير عقيب النهى عن الشر وأن يستعملوا مكان القبيح من الكلام الحسن، ومكان الفسوق البرّ والتقوى ومكان الجدال الوفاق والأخلاق الجميلة. أو جعل فعل الخير عبارة عن ضبط أنفسهم حتى لا يوجد منهم ما نهوا عنه،"[2]

ومنها قوله تعالى : **وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**[3] لما كان بعضهم يدخل بيوته من ظهورها.

1- سورة البقرة ، آية رقم 200 .

2 - الزمخشري محمود ، المصدر السابق ، ج1، ص 244.

3- سورة البقرة ، آية رقم 189.

يقول الزمخشري "كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطا ولا داراً ولا فسطاطا من باب، فإذا كان من أهل المدر نقب نقبا في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتخذ سلما يصعد فيه وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء"[1]

ومثال الإستدراك أيضا في قوله تعالى: ﴿ **مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ** ﴾[2] "

لِرَفْعِ ما يَتَوَهَّمُهُ المُشْرِكُونَ مِنِ اعْتِقادِ أنَّها مِن شَرْعِ اللَّهِ لِتَقادُمِ العَمَلِ بِها مُنْذُ قُرُونٍ. والمُرادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا هُنا جَمِيعُ المُشْرِكِينَ فَإنَّهم يُكَذِّبُونَ في نِسْبَةِ هَذِهِ الأشْياءِ إلى شَعائِرِ اللَّهِ لِأنَّهم جَمِيعًا يُخْبِرُونَ بِما هو مُخالِفٌ لِما في الواقِعِ. والكَذِبُ هو الخَبَرُ المُخالِفُ لِلْواقِعِ."[3]

ومثل ذلك يقال في إبطال عادة التبني التي كانت مألوفة لدي العرب " **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ** "[4]

و نهيهم عن قتل الأبناء مع التنبيه إلى أن الرزق قد تكفل به هو نفسه جل علاه : "**وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا**" [5]

وهكذا يمكن القول أن القرآن الكريم لم يقتصر على منهج واحد في عرض الحوادث التاريخية ، بل سلك مناهج متنوعة تناسب كل مقام، وتراعي مختلف الحالات .

وقد توصل الدارسون للموضوع إلى أن أبرز سمات الحوادث التاريخية المذكورة في القرآن الكريم تتجلى في خاصيتين : صحة الحدث، و البعد الواقعي للحادثة[6]

---

1 - الزمخشري ، ج 1 ، ص 234 .

2- سورة المائدة ، آية رقم 103.

3- ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج7 ، ص74.

4- سورة الأحزاب ، آية رقم 5 .

5- سورة الإسراء ، آية رقم 31 .

6- هذا ماتوصلت إليه الباحثة رشيدة مقدم في أطروحتها المشار إليها سابقا.

فالوقائع التي تحدث عنها القرآن الكريم قد ثبتت يقينا، وبعضها ورد في كتابات المؤرخين القدامى من الإغريق[1] واللاتين الذين عاشوا في الفترة التي سبقت البعثة النبوية و النزول القرآني على غرار الكاتبان الشهيران هيرودوت [2] وسترابون[3] وغيرهما ...

ومع يقيننا المطلق والجازم نحن المسلمون، وإيماننا العميق بجميع ما جاء في القرآن الكريم، نقر أنه " لا يجوز محاكمة القرآن الكريم إلى أي كتاب أخر ليس له من قوة الثبوت ما للقرآن الكريم، وأي خلاف يقع في حادثة وردت في القرآن الكريم وبين ما كتبه عنها البشر ، فإن الخطأ في جانب البشر لا محالة " [4]

هذا ، وإنني إكتفيت بذكر المنهجين الوصفي والتاريخي، اعتبارا من أنهما الغالب في النصوص القرآنية الكريمة التي تناولت أهم الحوادث التاريخية .

والمقصود بالمنهج في " اللغة هو الطريق الواضح في علم أو عمل"[5]

المطلب الأول منهج الوصفي العرضي وأمثلته

تعريف المنهج الوصفي:

المنهج الوصفي أو العرضي : " هو منهج تقريري ، تقدم فيه المادة العلمية كما هي في الواقع ، بلا تعليل أو تفسير، ويكون في نهاية المطاف عبارة عن دليل علمي ، يهدي إلى القضايا أو الموضوعات أو المصطلحات أو الإشكالات العلمية فيصفها كما أو كيفا، أو هما

---

1 - الإغريق هم قدامى اليونان .

2- هيرودوت : إغريقي قديم 484-425 ق .م أول المورخين وأقدمهم لقب ب: أبو التاريخ ولد ب هاليكارنيوس (تركيا حاليا) ورحل الى مختلف مدن العالم ، اثمرت رحلاته العلمية تأليف كتاب عمدة في معرفة الشعوب والقبائل القديمة كتاب تاريخ العالم .

3- سترابون :جغرافي يوناني قديم ولد بنوفيا قبل الميلاد وتوفي سنة 23 م، اشهر مولفاته جغرافية العالم.

4 - مقدم رشيدة ، المرجع السابق ، ص159.

5- بوحوش عمار محمد محمود الذنيبات منهج البحث العلمي وطرق إعداد البحوث ، ط ، 4 ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،2007 .

معا،بطريقة منهجية، تتخذ في الغالب إحدى صورتين : صورة العرض أو صورة التكشيف والفهرسة" [1]

مميزات المنهج الوصفي :

" والمنهج الوصفي يمتاز عن باقي المناهج بتتبعِه للظاهرة المدروسة بالاستناد إلى معلومات تتعلق بالظّاهرة،في زمن معين أو فترات زمنية مختلفة،للنظر إليها في أبعادها المختلفةوتطوراتها، وذلك من أجل ضمان الوصول إلى نتائج موضوعية.والمنهج الوصفي ليس سهلا ، كما قد يبدو ، فهو يتطلب اختيار ادوات البحث المناسبة والتأكد من صلاحيتها ، وكذلك الحرص في اختيار العينة والدقة في تحليل البيانات والخروج منها بالاستنتاجات المناسبة".[2]

والملاحظ أن أغلب الحوادث التاريخية تم عرضها وفق المنهج الوصفي ، ذلك لأن القرآن الكريم سلك أسلوبا متميزا ، بعيدا عن التفاصيل والجزئيات فهو"يقتصر على مواضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل الجزئيات ،فهو لا يذكر- غالبا- تاريخ الوقائع ،ولا أسماء البلدان التي حصلت فيها، ولا أسماء الأشخاص الذين جرت على يدهم بعض الحوادث، وإنما يتخير ما يمس جوهر الموضوع "[3]

- **أمثلة المنهج الوصفي المنهج الوصفي في القرآن الكريم**

ومن أمثلة المنهج الوصفي ما ذكر سابقا من الأمور العقائدية الفاسدة التي أشارت إليها سورة الأنعام

ومنها قوله تعالى : "وهل أتاكَ نبأُ الخصمِ إذ تسوّروا المِحراب. إذ دخلوا على داودَ ففزِعَ منهم، قالوا لا تَخفْ خَصمانِ بَغى بَعضُنا على بعض، فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط واهدنا إلى سواءِ الصراط. إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولِيَ نعجةٌ واحدةٌ فقال أكفِلنيها

1 - أجدير نصر الدين ، عادات العرب وأثرها في تفسير القران الكريم –،رسالة دكتورة جامعة تلمسان، 2016.

2 - المنهج الوصفي وخصائصه مقالة على موقع منتدى علوم التربية ، https://ykadri.ahlamontada.net/t629-topic،تاريخ الاطلاع 25 جوان 2021 15.23

3 أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، مكتبة الإسكندرية ، مصر،سنة 1997 ، ج 1، ص332 .

وعَزّني في الخِطاب. قال لقد ظلمكَ بسؤالِ نَعجتِك إلى نِعاجه، وإنّ كثيراً من الخُلطاء ليبغي بعضُهم على بعض" [1]

المطلب الثاني : المنهج التاريخي وأمثلته

تعريف المنهج التاريخي :

وأما المنهج التاريخي فهو المنهج الذي يقوم على جمع معلومات " عن الأحداث والحقائق الماضية وفي فحصها ونقدها وتحليلها والتأكد من صحتها ، وفي عرضها وترتيبها وتفسيرها ، واستخلاص التعميمات والنتائج العامة منها والتي لا تقف فائدتها على فهم أحداث الماضي فحسب ، بل تتعداه في تفسير الأحداث والمشاكل الجارية وفي توجيه التخطيط بالنسبة للمستقبل "[2]

ويعرفه آخرون بأنه " دراسة الماضي بمختلف أحداثه وظواهره، وكذلك دراسة التاريخ بمعناه الخاص والذي يعني البحث في مجمل حياة البشر الماضية وما تشمل عليه من علاقات بين الأحداث والمتغيرات في الفترات الزمنية المختلفة، وبالذات العلاقات السببية المسئولة عن تطور وتغير هذه الظواهر والأحداث عبر الزمن، "[3]

ومن أمثلة ذلك ماجاء في سورة البروج من قصة أصحاب الأخدود

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿4﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿5﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿6﴾وهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿7﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿8﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿9﴾[4]

1- سورة ص ، آية رقم 21.

2 بوحوش عمار ، المرجع السابق ، ص

3- ربحي مصطفى عليان، محمد مصطفى غنيم : أساليب البحث العلمي ، الأسس النظرية والتطبيق العملي، دار الصفاء للنشر ، عمان ، ط1، 2010، ص6.

4- سورة البروج الآيات من 6 إلى 9.

المطلب الثالث : أهمية المنهج التاريخي ومزاياه:

من المؤكد أنه لا أحد ينكر أو يتجاهل أن: "للمنهج التاريخي أهمية كبيرة حيث أنه يسهم بشكل كبير في معرفة مدى تأثير التفاعلات التي حدثت في الماضي على الأحداث التاريخية، كما أنه من خلال هذا المنهج يستطيع الباحث العلمي أن يستشف المستقبل ويتوقع العديد من الأحداث التي قد تحدث عما قريب"[1]

المبحث الثاني : معالجة القرآن الكريم للقضايا المألوفة عند العرب

وبالرجوع إلى تلك الحوادث التي تم إستعراضها سابقا ضمن سياق النصوص القرآنية ، والتي تم تصنيفها على أساس أنها حوادث تاريخية ظلت مألوفة ومتكررة لدى المجتمع العربي أيام الجاهلية ،نجد أن القرآن الكريم لم يكتفي بتشخيص الحادثة فحسب ،و لم يتوقف عند عرضها والتذكير بها ليقدم علاجا بديلا لها، أو تصويبها، أو بيان المغزى من الحادثة مثل قصة الإيلاف.

المطلب الأول :حجية الكتاب على العرب

وأما من الناحية الإجمالية العامة ، وهو يناقش القضايا المعتادة عند العرب فإن الكتاب جاء أيضا :" قطعاً لحجة العرب، كي لا يقولوا: إنه لم يتنزل علينا كتاب كالذي تنزل على اليهود والنصارى؛ ولو قد أوتينا الكتاب مثلما أوتوا لكنا أهدى منهم، فها هو ذا كتاب يتنزل عليهم، ويقطع هذه الحجة عليهم، فيستحق الذين يكذبون العذاب الأليم: {أن تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا[2]." [3]

المطلب الثاني :معالجة القرآن الكريم للقضايا العقدية

فإذا تناولنا قضايا العقائد المذمومة التي كانت سائدة لدي العرب أيام الجاهلية، والتي سبق معنا ذكرها ،نجد أن الله تعالى بين أن الجور فيها واضح وجلي ، والنص يشير إلى لون خطير من ألوان الشرك بالله تعالى التي طبعت عصرهم ، والذي أقل ما يمكن القول عنه أنه صرف

1- موقع النخبة www.alno5ba.com/blog.php?id=69&title تاريخ الاطلاع 12 أوت 2021 توقيت 20.49 .

2 سورة الأنعام ، آية رقم 156.

3 - سيد قطب ، المصدر السابق ،ج 3 ، ص1236 .

جزء مما رزقهم الله به وأنعم عليهم من الزروع والأنعام قربة للشيطان و للأوثان التي كانوا يعبدونها من دون الله، معتقدين فيها غاية النفع والضر ،فإن المولى تعالى بين أنه لم يجعل أبدا بحيرة ولا سائبة ولا و وصيلة ولا حام ، وإنما ذلك مجرد زعم فاسد ،ورأي طريح وافتراء على الله من غير علم، ولا حجة ولا برهان، ، وما إدعوه هو مجرد دعوى الباطلة بغرض الإنتصار لجهلهم وشركهم ، ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ"[1] ...

وقد صنف معبوداتهم التي يسعون لإرضائها بهذه القربات " يقول جل ثناؤه: وقد أساؤوا في حكمهم،إذ أخذوا من نصيبي لشركائهم، و لم يعطوني من نصيب شركائهم. وإنما عنى بذلك تعالى ذكره الخبرَ عن جهلهم وضلالتهم، وذهابهم عن سبيل الحق، بأنهم لم يرضوا أن عدلوا بمن خلقهم وغذاهم، وأنعم عليهم بالنعم التي لا تحصى، ما لا يضرهم ولا ينفعهم، حتى فضّلوه في أقسامهم عند أنفسهم بالقَسْم عليه"[2].

فالملاحظ أن النص القرآني في الآية الكريمة قد إنتهى بعبارة هي غاية في الرد والبلاغة ، و الإيجاز:" ساء ما يحكمون" .

وإذا كان إبن جرير الطبري قد عد ذلك وصفا ، فإن غيره من المفسرين من يذهب إلى أن هذا النوع من الردود هو جنس التهكم البليغ :" وجُمْلَةُ ﴿ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾ إسْتِئْنافٌ لِإنْشاءِ ذَمِّ شَرائِعِهِمْ، وساءَ هُنا بِمَعْنى بِئْسَ، و(ما) هي فاعِلُ ساءَ وهي مَوْصُولَةٌ وصِلَتُها (يَحْكُمُونَ) وحُذِفَ العائِدُ المَنصُوبُ، وحُذِفَ المَخْصُوصُ بِالذَّمِّ لِدَلالَةِ (جَعَلُوا) عَلَيْهِ؛ أيْ: ساءَ ما يَحْكُمُونَ جَعْلُهم، وسَمّاهُ حُكْمًا تَهَكُّمًا؛ لِأنَّهم نَصَبُوا أنْفُسَهم لِتَعْيِينِ الحُقُوقِ، فَفَصَلُوا بِحُكْمِهِمْ حَقَّ اللَّهِ مِن حَقِّ الأصْنامِ، ثُمَّ أباحُوا أنْ تَأْخُذَ الأصْنامُ حَقَّ اللَّهِ ولا يَأْخُذَ اللَّهُ حَقَّ الأصْنامِ، فَكانَ حُكْمًا باطِلًا "[3]

وقد اعتبر القرآن الكريم ذلك التصرف مجرد وهم، على شكل التأويل الفاسد الذي أضل الطريق ، وهو زعم ليس إلا "والزَّعْمُ: الِاعْتِقادُ الفاسِدُ، أوِ القَرِيبُ مِنَ الخَطَأِ، كَما تَقَدَّمَ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ألَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أنَّهم آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إلَيْكَ وما أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ [4] ﴾ [1]

1- سورة المائدة ، آية رقم 103 .

2 - الطبري محمد بن جرير ، المصدر السابق ،ج 12 ، ص135.

3 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ،ج 8 ، ص98 .

4 - النساء ، آية رقم 60 .

والجدير بالذكر أنه قد "سلك السياق القرآني هذا المنهج في خطواته البطيئة الطويلة الدقيقة: لقد قرر إبتداء خسران الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله- إفتراء على الله- وأعلن ضلالهم المطلق في هذه التصورات والمزاعم التي ينسبونها إلى الله بغير علم، ثم لفت أنظارهم إلى أن الله هو الذي أنشأ لهم هذه الأموال التي يتصرفون فيها هذه التصرفات.. هو الذي أنشأ لهم جنات معروشات وغير معروشات. وهو الذي خلق لهم هذه الأنعام.. والذي يزرق هو وحده الذي يملك، وهو وحده الذي يشرع للناس فيما رزقهم من هذه الأموال.. وفي هذه اللفتة استخدم حشدا من المؤثرات الموحية من مشاهد الزروع والثمار والجنات المعروشات وغير المعروشات، ومن نعمة الله عليهم في الأنعام التي جعل بعضها حمولة لهم يركب ويحمل وبعضها فرشاً، يؤكل لحمه ويفرش جلده وصوفه وشعره.. كما استخدم ذكرى العداء المتأصل بين بني آدم والشيطان. فكيف يتبعون خطوات الشيطان، وكيف يستمعون لوسوسته وهو العدو المبين؟!"[2]

تعليل وصف الكافرين بالخسران:

والوصف بالخسران هو أحد العلاجات القرآنية الربانية لأمراض التأويل الفاسد ، كونهم " يَعْمَلُونَ طَلَبًا لِمَرْضاةِ اللَّهِ وثَوابِهِ فَيَقَعُونَ في غَضَبِهِ وعِقابِهِ؛ لِأنَّهم أتْعَبُوا أنْفُسَهم فَحَصَّلُوا عَكْسَ ما تَعِبُوا لِأجْلِهِ؛ " [3]

على أن " تِلْكَ الأحْداثَ لا تَمُتُّ إلى مَرْضاةِ اللَّهِ تَعالى بِسَبَبٍ مِن جِهَتَيْنِ: إحْداهُما أنَّها تَنْتَسِبُ إلى الآلِهَةِ والأصْنامِ، وذَلِكَ إشْراكٌ وكُفْرٌ عَظِيمٌ. الثّانِيَةُ أنَّ ما يُجْعَلُ مِنها لِلَّهِ تَعالى مِثْلُ السّائِبَةِ هو عَمَلٌ ضَرُّهُ أكْثَرُ مِن نَفْعِهِ؛ لِأنَّ في تَسْيِيبِ الحَيَوانِ إضْرارًا بِهِ إذْ رُبَّما لا يَجِدُ مَرْعًى ولا مَأْوًى، ورُبَّما عَدَتْ عَلَيْهِ السِّباعُ، وفِيهِ تَعْطِيلُ مَنفَعَتِهِ حَتّى يَمُوتَ حَتْفَ أنْفِهِ.

1- إبن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ، ج 8 ، ص95.

2- سيد قطب ، المصدر السابق ،ج 3 ، ص 1215 .

3 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ،ج 8 ، ص113.

وما يَحْصُلُ مِن دَرٍّ بَعْضِها لِلضَّيْفِ وابْنِ السَّبِيلِ إنَّما هو مَنفَعَةٌ ضَئِيلَةٌ في جانِبِ المَفاسِدِ الحافَّةِ بِهِ." [1]

المطلب الثالث معالجة القرآن الكريم للسلوكات المذمومة

معالجة حمية الجاهلية

عالج القرآن الكريم قضية الحمية الجاهلية بما يقابلها من السكينة والوقار والرزانة ، فجعل ذلك في مقابل حمية الجاهلية ، وأنها لاتختلف عن ظن الجاهلية الذي هو من جنس ظن السوء "وإضافَةُ الحَمِيَّةِ إلى الجاهِلِيَّةِ لِقَصْدِ تَحْقِيرِها وتَشْنِيعِها، فَإنَّها مِن خُلُقِ أهْلِ الجاهِلِيَّةِ، فَإنَّ ذَلِكَ انْتِسابُ ذَمٍّ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجاهِلِيَّةِ﴾ [2] وقَوْلِهِ: ﴿أفَحُكْمَ الجاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [3]." [4]

والملاحظ في النص أنه قدم السكينة على الحمية، وجعلها من صفات المؤمنين ، و أنه تعالى أكرم بها نبيه و من معه من الصحابة الكرام ، "ووَجْهُ تَقْدِيمِ الإنْزالِ عَلى الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَخْفى وقالَ الإمامُ: في هَذِهِ الآيَةِ لِطائِفُ مَعْنَوِيَّةٌ وهو أنَّهُ تَعالى أبانَ غايَةَ البَوْنِ بَيْنَ المُؤْمِنِينَ والكافِرِينَ حَيْثُ بايَنَ بَيْنَ الفاعِلَيْنِ إذْ فاعِلُ (جَعَلَ) هو الكُفّارُ وفاعِلُ (أنْزَلَ) هو اللَّهُ تَعالى، وبَيْنَ المَفْعُولَيْنِ إذْ تِلْكَ حَمِيَّةٌ وهَذِهِ سَكِينَةٌ. وبَيْنَ الإضافَتَيْنِ إضافَةُ الحَمِيَّةِ إلى الجاهِلِيَّةِ وإضافَةُ السَّكِينَةِ إلَيْهِ تَعالى، وبَيْنَ الفِعْلَيْنِ (جَعَلَ) و(أنْزَلَ) فالحَمِيَّةُ مَجْعُولَةٌ في الحالِ كالعَرَضِ الَّذِي لا يَبْقى والسَّكِينَةُ كالمَحْفُوظَةِ في خِزانَةِ الرَّحْمَةِ فَأنْزَلَها والحَمِيَّةُ قَبِيحَةٌ مَذْمُومَةٌ في نَفْسِها وازْدادَتْ قُبْحًا بِالإضافَةِ إلى الجاهِلِيَّةِ، والسَّكِينَةُ حَسَنَةٌ في نَفْسِها وازْدادَتْ حُسْنًا بِإضافَتِها إلى اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ، والعَطْفُ في فَأنْزَلَ بِالفاءِ لا بِالواوِ يَدُلُّ عَلى المُقابَلَةِ والمُجازاةِ تَقُولُ: أكْرَمَنِي زَيْدٌ فَأكْرَمْتُهُ فَيَدُلُّ عَلى أنَّ إنْزالَ السَّكِينَةِ لِجَعْلِهِمُ

---

1 – ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ، ج 7 ، ص75.

2 سورة أل عمران ، آية رقم 154.

3 سورة المائدة ، آية رقم 50 .

4 إبن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ،ج 26 ، ص 194 .

الحَمِيَّةَ في قُلُوبِهِمْ حَتّى أنَّ المُؤْمِنِينَ لَمْ يَغْضَبُوا ولَمْ يَنْهَزِمُوا بَلْ صَبَرُوا، وهو بَعِيدٌ في العادَةِ فَهو مِن فَضْلِ اللَّهِ تَعالى انْتَهى وهو مِمّا لا بَأْسَ بِهِ " [1]

الصد عن سبيل الله من مظاهر حمية الجاهلية

وهذا التضاد في الوصف بين الفريقين فريق المزمنين الموصوف بالسكينة ، وفريق الكافرين الموصوف بالحمية ، له دلائل ومبررات واضحة ، ذلك أن الكفار " صَدُّوكم صَدًّا لا عُذْرَ لَهم فِيهِ ولا داعِيَ إلَيْهِ إلّا حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ، وإلّا فَإنَّ المُؤْمِنِينَ جاءُوا مُسالِمِينَ مُعَظِّمِينَ حُرْمَةَ الكَعْبَةِ سائِقِينَ الهَدايا لِنَفْعِ أهْلِ الحَرَمِ فَلَيْسَ مِنَ الرُّشْدِ أنْ يُمْنَعُوا عَنِ العُمْرَةِ ولَكِنَّ حَمِيَّةَ الجاهِلِيَّةِ غَطَّتْ عَلى عُقُولِهِمْ فَصَمَّمُوا عَلى مَنعِ المُسْلِمِينَ،"[2]

وهكذا اعتبر المفسرون أن مجرد الصد عن بيت الله الحرام هو دليل قطعي لثبوت الحمية الجاهلية ، كما أن الصبر عن هذا الأذى هو من صفات الحلم والسكينة

"ولَمّا كانَ صَدُّهُمُ النّاسَ عَنْ زِيارَةِ البَيْتِ بِلا حَقٍّ لِأنَّ البَيْتَ بَيْتُ اللَّهِ لا بَيْتُهم كانَ داعِي المَنعِ مُجَرَّدَ الحَمِيَّةِ قالَ تَعالى وما كانُوا أوْلِياءَهُ." [3]

معالجة قضية قتل الأولاد ووأد البنات

سلك القرآن الكريم أسلوب الإنشاء المتمثل في الإستفسار الإنكاري في بيان مدى شناعة وأد البنات بغير حق " **وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ** ۝ [4]

" لقد نهى الله عن الشرك. وأمر بالإحسان للوالدين. ونهى عن قتل الأولاد من الفقر مع طمأنتهم على الرزق. ونهى عن القرب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ونهى عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. ونهى عن مس مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده. وأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط. وأمر بالعدل في القول- في الشهادة والحكم- ولو كان

1 - الألوسي شهاب الدين ،المصدر السابق ، ج 13، ص271.
2 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر السابق ، ج26 ، ص193.
3 - ابن عاشور محمد الطاهر ، المصدر نفسه ،ج 26 ، ص193.
4 - سورة التكوير، آية رقم 8.

ذا قربى. وأمر بالوفاء بعهد الله كله. وجعل هذا جميعه وصية من الله كررها عقب كل جملة من الأوامر والنواهي."[1]

1 - سيد قطب ، المصدر السابق ،ج 3، ص1216 .

خاتمة

ولست أدعي – و قد وصلت إلى خاتمة البحث – أنني قد إستأثرت في مذكرتي هذه بالحقيقة كلها ، فإن ذلك من خصائص الكتاب الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإن كنت أصبت من الحسنات فذلك من توفيق الله تعالى أولا، ومن ثمرات جهود أساتذتي الكرام ثانيا ، وإن كان من نقص أو تقصير فمن نفسي.

ولأن الداخل في الشيء ليس كالخارج منه، فقد اتضح لي من خلال مسيرة البحث الكثير من المسائل لم أكن على دراية بها إلا بعد أن طرقت أبوابها .

أولاها أن حوادث جمة التاريخية ظلت مألوفة عند العرب منذ الجاهلية إلى أن بزغ نور الإسلام ،و أنها لم تكن على درجة واحدة من المقت أو الحسن ، فمنها الجميل المستحسن الذي أقره الإسلام وثبت دعائمه، كتعظيم البلد الحرام وتحريم القتال فيه ،وخدمة الحجاج والمعتمرين والعناية بهم في المأكل والملبس والسقاية و الإحرام إلى أن يعودوا إلى أوطانهم أمنين ، وكتعظيم الأشهر الحرم والإنكار على القتال فيها، وتخصيص المال الطيب لبيت الله الحرام ، وتجنيبه أموال الباطل والربا ،وما إلى ذلك من الأعمال الجليلة التي بيضت صحائف العرب في الجاهلية

وبالمقابل حملت نصوص كثيرة أخبارا غير سارة عن حوادث الشرك وضروبه المتنوعة من طيرة وسحر وكهنة ، واستغاثة بالمخلوق ، والتقرب إلى الله بالأوثان ، بالإضافة إلى سلوكات مسقبحة شرعا وعقلا، على غرار ماعرفنا من وأد البنات وقتل الأولاد وتعاطي الربا، وإدمان الخمر ولعب الميسر، وضرب الأزلام ، وما إلى ذلك من العادات السيئة التي سودت سجلات العرب قبل الإسلام

وقد سلك القرآن الكريم في عرض هذه الحوادث مناهج مختلفة، تأرجحت في الغالب بين المنهج التاريخي والمنهج العرضي الوصفي ، إلى جانب مناهج أخرى كمنهج الإستدراك على وجه الخصوص .

غير أنه قد زيد عن العرب أشياء كثيرة وألصقت بهم تهما ليست منهم ، وقد شهد الله لهم بأنهم أفضل الأمم التي أخرجت للناس، وأقر لهم النبي الكريم بأنهم معدن الحكمة ، و منبع البيان ، ومعلوم أنه كان في العرب عقلاء كبار وافتهم المنية قبل أن يترل القرآن الكريم و قبل أن يبعث فيهم النبي ، وقد اشرفوا على إطفاء نار الفتن، وسعوا في حقن الدماء، و تذكر الروايات الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حضر واحدا من هذه المجالس، واغتبط بها أيما اغتباط وهو حدث غلام ، وتمنى أن يعود حلف الفضول، ويحضر مجلسه من جديد ،وهذه المباركة منه صلى الله عليه وسلم تدل على مدى الحنكة وحصافة العقل التي بلغها أعيان العرب الذين قاموا بهذا الحلف وهم في عز أيام الجاهلية .

و لعله من المنصف نقول أن مظاهر الجاهلية التي رأينا سابقا، وعجت بمظاهرها سور القرآن الكريم ، من شرك وكفر وعبادة الأوثان وقتل الأولاد، وشرب الخمر، ولعب الميسر، ونحو ذلك من الصور الممقوتة لم تكن حكرا على أمة العرب وحدها ، فقد عاشت مظاهرها غيرهم من الأمم على غرار الفرس والروم والإغريق، والهند وشهدت نفس هذه المظاهر ، و بعض هذه الصور لا تزال مستمرة إلى اليوم.

يقول سيد قطب " وهذه الصورة التي كانت تقع في جاهلية العرب، وكانت تقع نظائرها في الجاهليات الأخرى: للإغريق والفرس والرومان،." الظلال ج3 ص 1218

وإنما خص الله تعالى العرب بالخطاب لبيان مركزهم بين الأمم ، ولاصطفائهم لحمل الرسالة بعد تزكيتهم من أدران الجاهلية ، فيصير لهم شرف حمل الرسالة ونشر دعوة التوحيد في أصقاع المعمورة شرقا وغربا . وقد حدث ذلك فعلا ، ولله الحمد والمنة.

ومن المؤكد أن مثل هذه النظرات السلبية الخاطئة، التي سجلت على العرب بقصد أو بغير قصد، قد حملت في طياتها مغالطات كثيرة ترمي إلى الطعن في هوية العرب.

و المؤسف أنه قد وجد في تلك الأخطاء بعض الذين يضمرون حقدا للعرب قديما وحديثا من الشعوبيين وغيرهم ضالتهم للنيل من شرف بل من هوية هذه الأمة العريقة ، فسعوا إلى

النفخ في الرماد، لرمي سهامهم المسمومة ، وهموا بما لم ينالوا ، وقضت حكمة الله تعالى أن كان الباطل زهوقا ، فلم يعد شأنهم يخفى على ذي لب، وانتهى أمرهم:

كناطح صخرة يوما ليوهنا و لم يستطع، فأوهن قرنه الوعل

إن المبالغة في عد مثالب العرب في الجاهلية، مع الإضراب عما كان فيهم من خصال حميدة ، ثم السكوت عن ما كان غيرهم من الأمم من قبح الفعال ، قد ينم عن أمر مبيت لا محالة ، وأنه لا ريب إجحاف في حق أمة عرف أبناؤها الصدق والحلم يوم لم يكن فيهم رسول ولا كتاب يهديهم سبيل الرشاد.

والله الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

فهرس الأيات القرأنية الكريمة

الآيات القرآنية الكريمة	الصفحات

- فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- كتب السنة النبوية

01- إبن عاشور محمد الطاهر / تفسير التحرير والتنوير- الدار التونسية للنشر – تونس- 1984

02- ابن فارس أحمد بن زكرياء /معجم مقاييس اللغة - ت :عبد السلام محمد هارون - دار الفكر – بيروت - سنة 1979 م

03- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري / الشعر والشعراء - دار الحديث، القاهرة - 1423 هـ

04- ابن كثير / تفسير القران العظيم دار الكتب العلمية، منشورات - بيروت ط الأولى – 1419ه

05- ابن كثير إسماعيل بن عمر /البداية والنهاية - دار الفكر - بيروت - سنة- 1986 م

06- ابن منظور محمد بن مكرم ،أبو الفضل - لسان العرب - - دار صادر - بيروت ط3 - سنة - 1414 هـ

07- ابن منظور محمد بن مكرم أبو الفضل / لسان العرب - دار صادر - بيروت ط3 - سنة - 1414 هـ

08- ابن هشام عبد الملك بن ايوب السيرة النبوية. ت .مصطفى السقا شركة الحلبي - القاهرة ط2 سنة 1955

09- ابن هشام عبد الملك بن أيوب ، ت مصطفى السقا - مكتبة مصطفى الحلبي مصر ط2، - 1955

10- أجدير نصر الدين / عادات العرب وأثرها في تفسير القران الكريم – رسالة دكتورة جامعة تلمسان
11- احمد أمين/ ضحى الإسلام مكتبة الإسكندرية مصر 1997
12- الأصفهاني الراغب الحسين بن محمد/ المفردات في غريب القرآن –ت: صفوان عدنان الداودي – دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت ط1 - 1412 هـ
13- الأفغاني، سعيد /أسواق العرب في الجاهلية والإسلام - ، دار الفكر ، بيروت ، القاهرة ، ط 3 ، 1974
14- الألوسي / محمود شهاب الدين أبو الثناء - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ت: علي عبد الباري عطية - دار الكتب العلمية - بيروت – ط1 - 1415هـ
15- بوحوش عمار محمد محمود الذنيبات منهج البحث لعلمي وطرق اعداد البحوث ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 ط 4
16- جواد علي/ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام –دار الساقي ط 4 2001م
17- الجوهري إسماعيل بن حماد / تاج اللغة وصحاح العربية –ت: أحمد عبد الغفور عطار – دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة – 1987 م
18- الجوهري إسماعيل بن حماد / تاج اللغة وصحاح العربية ت: أحمد عبد الغفور عطار– - دار العلم للملايين – بيروت ط4 - 1987 م
19- الذهبي شمس الدين سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة بيروت 1982
20- ربحي مصطفى عليان، محمد مصطفى غنيم : أساليب البحث العلمي ، الأسس النظرية والتطبيق العملي، دار الصفاء للنشر ، عمان ، ط1، 2010، .
21- الزركلي خيرالدين بن محمود - دار العلم للملايين ط الخامسة عشر – 2002

22- الزمخشري محمود بن عمرو جار الله/ الكشاف عن حقائق غوامض التتريل ، دار الكتاب العربي - بيروت –ط3 - 1407 هـ

23- سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي /في ظلال القران –دار الشروق - بيروت- القاهرة - ط17 - 1412 هـ

24- شكران خربطلي / سطور منسية في تاريخ الحجاز- الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل ظهور الإسلام مؤسسة رسلان لللطباعة والنشر دمشق 2011

25- الطبري محمد بن جرير / جامع البيان عن تأويل أي القرآن ت - أحمد محمد شاكر –مؤسسة الرسالة - بيروت –ط 1 - 2000 م

26- عمر بن فهد نجم الدين /إتحاف الورى بأخبار أم القرى ت. محمد شلتوت جامعة أم القرى – مكة المكرمة 1988م

27- عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب القديمة والحديثة – دار العلم للملايين بيروت

28- القرطبي أبو عبد الله، محمد بن أحمد/ الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته السنة وأي الكتاب - ت- أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- - دار الكتب المصرية - القاهرة ط2 - ١٩٦٤ م

29- المسعودي علي بن الحسين / مروج الذهب ومعادن الجوهر المكتبة العصرية – بيروت ط1 سنة 2005

30- مقدم رشيدة / العرض التاريخي في القرآن الكريم – خصائصه وسماته الفنية - مذكرة ماجيستير 2006/2007 جامعة وهران

31- مهران بيومي دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب دار النهضة العربية بيروت ط 2 سنة 2015

32- ياقوت الحموي شهاب الدين ي/ معجم البلدان - دار صادر، بيروت ط2 - 1995

33- اليعقوبي أحمد بن إسحاق/ البلدان- دار الكتب العلمية، بيروت ط1 - 1422هـ

34- ميمون يوسف طعام حفيظة / العصبية القبلية في الشعر العربي القديم ميمون مقال مجلة أنسنة للبحوث والدراسات سنة 2019جامعة زيان عاشور 1 الجلفة

35- - ربيع، عبد الله، من ملامح المنهج العلمي عند علماء العربية، مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية،

المواقع الالكترونية

01-https://raseef22.net/article/117445- - مجلة رصيف 22 -

02-صالح محمد فيديو تاريخ العرب - ابرز العادات السيئة عند العرب قبل الاسلام https://www.youtube.com/watch?v=9A0fMyhqCDA

03-https://makkah.org.sa/

04- موقع النخبة www.alno5ba.com/blog.php?id=69&title

05-موقع منتدى علوم التربية https://ykadri.ahlamontada.net/t629-topic

فهرس الموضوعات...الصفحة

الفصل الثاني

منهج القرآن الكريم في عرض ومعالجة الحوادث التاريخية المعهودة عند العرب